

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



مجلة علمية محكمة تصدر عن عمادة البحث العلمي بجامعة البنات الأردنية الأهلية

جمادى الأولى ١٤١٨ هـ / أيلول ١٩٩٧ م

المجلد ١ / العدد ٣

هيئة التحرير

رئيس التحرير

أ. د. فهمي جدعان

أمين التحرير

أ. د. محمد حُور

أ. د. عليّة عبد الهادي

إ. د. وديع العبد

د. فوزي العكش

د. فارس بدوي

د. علي حجّاج

كل ما وزد في هذا العدد من مجلة « البصائر » يعبر عن وجهات نظر الكُتّاب أنفسهم، ولا يعبر بالضرورة عن وجهات نظر هيئة التحرير، أو سياسة جامعة البنات الأردنية الأهلية

اثر الفكر الدارويني في البحث اللغوي العربي الحديث

د. عبد الله احمد خليل إسماعيل
جامعة الأزهر - غزة

ملخص

يتألف البحث من مقدمة ، فتمهيد ، فمبحثين ، فخاتمة . وقد عالجت المقدمة أهمية البحث ، وأسباب اختياره ، وقام التمهيد ببيان أثر الفكر الدارويني في أوروبا في مجالات الحياة المختلفة ، خاصة اللغة ، ثم أثره في العالم العربي ، وذكر أهم الباحثين العرب الذين تأثروا به .

وتناول المبحث الأول قضية نشوء اللغات عامة وارتقائها ، على نحو ما بدأت مباحث يعقوب صروف ، وجورجي زيدان ، وجبر ضومط ، وأنستاس ماري الكرملي . في حين تناول المبحث الثاني قضية ثنائية الأصول اللغوية في مباحث أعلام البحث اللغوي العربي الحديث كالأب مرمرجي الدومنيكي ، والدكتور إبراهيم أنيس .

وقد انتهت الخاتمة إلى أن الفكر الدارويني كان واسع الأثر في البحث اللغوي العربي الحديث .

Abstract

The research studies the impact of Darwinian thought in Europe on various aspects of life, particularly on language. It also indicates that impact on the Arab world, banning the Arab writers who were influenced by that trend.

The first part of this work deals with the issue of language evolution and development, as it appears in the works of Jacob Sarrouf, Georgie Zidan, Jabr Dhomat and Anstass Mary Alkarmali.

The second part deals with the issue of bilateral linguistic origins in the works of such modern Arabic linguistic research leaders as Father Marmarji Aldominiki and Dr. Ibrahim Anees.

The research concludes that the Darwinian thought has had a wide impact on modern Arabic linguistic research.

تمهيد

(كثير من الناس يدخلون التاريخ ، ولكن للتاريخ بابين ، بابا أماميا ، وبابا خلفيا ، الأكثرون يدخلون التاريخ من الباب الخلفي ، فلا يلبثون غير قليل حتى تغمرهم موجات الزمن أما «داروين» وبيده كتاب «أصل الأنواع» فمن القلة القليلة الذين دخلوا التاريخ من بابه الأمامي ، ولم يدخل خلسة ، بل دخل التاريخ وبابه الأمامي مفتوح على مصراعيه) .

إسماعيل مظهر^(١)

شُغل الإنسان منذ القدم بالتفكير في أصل حياته ، كيف نشأ وارتقى في هذه الأرض . وقد اهتدى فلاسفة الإغريق ، والمسلمين ، والإفرنج من بعدهم إلى حقيقة أن النباتات ، والحيوانات متصلة كلها ، ومرتبطة معا اتصال حلق السلسلة بعضه ببعض ، من أدنى أنواع النبات ، إلى الإنسان أعلى أنواع الحيوان ، وإنما يفصل بين الحلقة والأخرى منها اختلاف قليل . وأن هذه المخلوقات - على ما بينها من تقارب - ثابتة لا تتغير ، وأن كلا منها خلق على حدة مستقلا عما سواه ، أي أن البنفسجة مستنبتة من أصلها الأول ، والزقوم من شجرتها الأولى ، وليس من نبتة واحدة ، وكذا شأن المخلوقات كالهدهد ، والغراب . والخنزير والغزال ، والقرد ، والإنسان^(٢) .

ظلت هذه الأفكار راسخة في الأذهان حتى عام ١٨٠٩م حين عسر على العالم الفرنسي (لا مارك Lamarck)^(٣) ، تمييز الأنواع بعضها من بعض تمييزا قاطعا ثابتا ، فانتهى في كتابه (الفلسفة الحيوانية) إلى أن كل ما على الأرض من حيوان ونبات قد تسلسل بعضه عن بعض على توالي الأجيال والأحقاب ، وأن أصل كل الأنواع واحد اختلفت ذرياته عنه ، واختلف بعضها عن بعض إما بتغيير جزء فيها ، أو بزيادة جزء عليها ، أو بإنقاص جزء منها مناسبة لمقتضى أحوالها ، وقد تم ذلك الاختلاف بفعل ثلاثة عوامل هي : أحوال المعيشة ، وتزاوج الأشكال المختلفة ، وتأثير العادة في استعمال الأعضاء ، وإهمالها .

وقد رد إلى العامل الأخير كل ما يُرى في الطبيعة من موافقة للأحوال التي هي فيها . فقد طال عنق الزرافة ليتمكنها من الوصول إلى أغصان الأشجار العالية ، ونعم جلد الثعبان

ودق جسمه واستطال لرحفه على الأرض ، واختبائه بين الأعشاب وعيشه بين الشقوق ، وعمي الخلد لحياته تحت الثرى . . إلخ ، وكان يعتقد بوجود ناموس تجرى عليه الأحياء في ارتقاؤها ، فهي كلها ترتقي بموجب هذا الناموس من حال البساطة إلى حال أشد منها تركيباً .^(٤)

لم تجد آراء (لامارك) في زمانه أذناً صاغية ، بل إن أكثر قرائه عدوها خرافات وتعليلاته أوهاما ، وقد أعرض العلماء عن متابعته لتطرفه في بعض آرائه ، ولأنه لم يأت بديل على صحة شيء منها ، بخاصة جعله تغير الحيوان متوقفاً على إرادته ، وزعمه - مثلاً - أن الزرافة أرادت أن يطول عنقها لعيشها بين الأشجار العالية ، ولو أرادت غير ذلك لطلبت رزقها في أماكن معينة لا يعوزها طول العنق .^(٥)

خمدت أفكار (لامارك) حيناً من الدهر ، ولم تلق من يتابعها ، إلى أن ظهر العالمان الإنجليزيان (تشارلز داروين ، Charles Darwin) ، (وولس Wallace) فكشف كلاهما - منفردين - ناموس الانتخاب الطبيعي ، وأذاعاه في زمان واحد سنة ١٨٥٩م ، فكان أن بعثا من جديد أفكار (لامارك) المقبورة .

كان (تشارلز داروين ١٨٠٩ - ١٨٨٢م) قد أكب على درس علم الحياة (البيولوجيا) وصنف في ذلك مباحث عدة أشهرها كتاباه (أصل الأنواع) ١٨٥٩م و (تسلسل الإنسان وناموس الانتخاب الجسمي) ١٨٧١ ، وهما اللذان حملتا أفكاره التي صارت تعرف - فيما بعد - بالنظرية الداروينية أو نظرية النشوء والارتقاء^(٦) . ولعل شهرة الكتابين المذكورين قد ألصقت نسبة النظرية (بداروين) أكثر من (ولس) مع أن العالمين الكهيميرين كانا على خلق علمي يحسدان عليه ، إذ كان كل واحد منها ينسب إلى زميله الفضل فيما توصل إليه .

خلاصة نظرية النشوء والارتقاء الداروينية أن أنواع الحيوان والنبات على كثرتها لم تخلق كما هي ، بل تفرعت عن أصل واحد أو بضعة أصول ، وأن الإنسان متسلسل من نوع من القرود باد واندثر ، وأنه - أي الإنسان - وبعض أنواع القرود من أصل واحد مشترك في الصفات ، أو هو حلقة واصله بينهما ، وقد عزز رأيه بالأدلة التشريحية ، والفسولوجية ، والطبيعية ، وأما أسانيده فيما ذهب إليه بشأن الحيوان والنبات فهي :

- أ - إن الأجسام الحية يموت منها بالعوارض أكثر مما يعيش .
 ب - ليس بين الأحياء حيان متشابهان تمام التشابه .
 ت - إن الخصائص التي يمتاز بها أفراد الحيوان قابلة للانتقال معها الى أولادها .
 ث - لا يعيش من تلك الأفراد ويتناسل إلا التي هي أكثر موافقة للأحوال المحيطة بها .
 ج - إن بقاء الأجسام الحية لموافقته الأحوال المحيطة بها يحفظ التوازن بين تلك الأجسام وأحوالها .

- ح - أحوال الأحياء تتغير دائماً ولكن تغييرها بطيء .
 خ - إن التغيرات التي تحدث في الأفراد تزداد اختلاطاً وتشوشاً بمقتضى الناموس القاضي بأن الاختلاف في بعض أعضاء الجسم يحدث اختلافاً في الأعضاء الأخرى .
 د - كل عضو من أعضاء الجسم يغتذي بقدر ما يعمل ^(٧) .

وقد استنتج (داروين) من أسانيده أن التغيرات التي تصيب الأجسام تستغرق زمناً طويلاً جداً حتى ينشأ عنها اختلاف الأنواع التي تخضع للانتخاب الطبيعي المتمثل في أن الطبيعة أو الأحوال الخارجية تنتخب من الأحياء ما يوافقها في الطبع ونوع المعيشة ، وتبدد ما لا يوافقها ، وهذا معنى تسمية الانتخاب الطبيعي بالصراع على البقاء أو بقاء الأصح ، فالطبيعة لا تبقي فيها إلا ما يوافق عوارضها وتغييراتها طبقاً لتغييرها ، وهو ما يعبر عنه بالتوازن أو التكيف ^(٨) .

هذه - في إيجاز - أهم آراء (داروين) التي شكلت مذهبه في النشوء والارتقاء ، وهي - كما يبدو - ذات صلة قوية بآراء (لامارك) ، حتى إن الفرنسيين ينسبون مذهب التطور إلى مواطنهم لا إلى العالم الإنجليزي .

وقد استقبل العالم الغربي تلك النظرية بثورة عارمة واستنكار واسع من قبل العامة ، ورجال الدين ، ووصل الأمر إلى بعض العلماء في مجالاتهم المختلفة ، فقد سلقوه بألسنة حداد ، وتبارى كثير منهم في الرد عليه ، وتخطئته ^(٩) . غير أن الأمر هذه المرة اختلف عما حدث (لامارك) ، فقد وجدت هذه النظرية قبولا عند نفر من العلماء الطبيعيين ، فراحوا يعملون بها وينتصرون لها في مباحثهم المختلفة ، كما وجدت سبيلها إلى البحث اللغوي وهو أمر يهمنا توضيحه الآن .

فقد كان الاعتقاد السائد قبل الداروينيين أن اللغة قصر على الإنسان ، وأنها إلهام أو خلق من الله الذي خلق الألفاظ وعلمها (آدم) ، أو هو الذي وهبه الملكة اللغوية ، وأن هذه قد نشطت في كل جماعة على نحو معين وشكلت لكل منها لغتها^(١٠) .

أنكر الداروينيون هذا الاعتقاد ذاهبين إلى أن اللغة مظهر من مظاهر الطبيعة^(١١) ، وأنها ليست حكراً على الإنسان دون الحيوان ، وأوردوا كثيراً من الأمثلة على أن للحيوان لغته التي يفكر ويتفاهم بها ، وأن الاختلاف بين الإنسان والحيوان ليس اختلافاً في النوع بل في الدرجة ، فكلاهما مفكر ولكن تفكير أحدهما أعلى درجة من تفكير الآخر ، وعليه فإن لغة الإنسان مرحلة راقية من مراحل التطور ، تسبق لغة الحيوان^(١٢) ، ولا بد من وجود مراحل متوسطة بين الأنواع السابقة والأنواع اللاحقة^(١٣) ، ويمكن تفسير الشذوذ اللغوي بأنه بقية من هذه المراحل^(١٤) .

وقد شاع بين أنصار الداروينية من علماء اللغة قولهم : إن اللغات كائنات حية يمكن حصر عددها ، وإنها تتطور تطور النبات والحيوان . وعلى هذا الهدى أذاع العالم الأمريكي (وتسي Whitney) ١٨٤٦ - ١٩٢١ كتابه (حياة اللغات وموتها) ١٨٧٥ ، ونظر (هرمان بول Herman Paul) ١٩٢١ إلى اللغة نظرتة إلى جهاز حي يتطور ، ينمو ويموت بصورة مستقلة عن الأفراد الذين يتكلمونها ، وفسر (جسبرسن Jespersen) مظاهر التغير اللغوي من حيث إنها تطور يتم في اللغة فيتلمس هذا التطور عبر الأزمان اللغوية بالوسيلة نفسها التي يتوسل بها علم التشريح في تناوله الحلقات الأولى من الكائنات في التاريخ الطبيعي^(١٥) .

وقد أجرى العالم الجيولوجي (لايل Lyell) نظرية التطور على اللغة «فقرر أن الأنواع في الطبيعة ، واللغات في التاريخ تتغير تبعاً لنواميس متشابهة . . . والعاملان الجوهريان في اللغات هما - كما في الأنواع - التغير والانتخابات الطبيعي»^(١٦) .

وقد ذهب العالم اللغوي (شليختر Schlecher) إلى مثل ذلك التوجيه في كتابه (داروين وعلم اللغات) فقال : «إن مبادئ داروين تنطبق جميعها على كيفية نمو اللغات ، فإن جميع لغات أوربا يكاد يكون لها أصل واحد هو اللغة الهندية الجرمانية ، ومنها تفرعت عدة فروع أولاً ، ثم تفرع عن هذه الفروع فروع أخرى وهكذا»^(١٧) .

وارتقاء اللغة عند الداروينيين حاصل بالتدرّيج من أبسط الصور أي من الألفاظ البسيطة المعبرة عن الإحساس والصور ، حيث تبدو في هذا الطور كالكريات العضوية ، ثم لا تلبث اللغة أن تأخذ في التطور والتوسع بتوليد ألفاظ وموت أخرى وهكذا دواليك . وقد ضربوا للغة مثلا في نموها ، فهي عندهم كالشجرة التي «تسقط أوراقها في الخريف وتظل جرداء عارية طوال الشتاء . ولكن طبيعتها الداخلية لا تلبث أن تنبثق بالورق الأخضر عندما تنضج في داخلها عوامل الدورة الجديدة من دورات الحياة»^(١٨) .

إن دورات الحياة اللغوية تمر في تطورها عند (شليخر) بثلاث مراحل هي :

١ - مرحلة الانفصال حيث الكلمة قد ركبت من مجموعة من الأصوات المعبرة عن فكرة دلالية بسيطة على نحو ما هو حادث في اللغة الصينية .

٢ - مرحلة اللصق ، وفيها تتكون الكلمة من أصل يعتبر أساسا لها ، ولا يتغير هذا الأصل بزيادة أو تغير في داخله بلصق زيادات تفيد دلالات جديدة زيادة على المعنى الأصلي ، وتعتبر اللغة التركية من اللغات التي توصف بأنها لصقية .

٣ - مرحلة الاشتقاق حيث تتألف اللغات الاشتقاقية من أصول تعبر عن الفكرة الأساسية ، وتبلغ رقيها بإضافة لواحق أو سوابق أو أواسط لتكوين المفردات التي تدل على الفكرة الأساسية وعلى بعض الأفكار الأخرى في نفس الوقت ، واللغة العربية خير مثال للغات الاشتقاقية^(١٩) .

إن هذه المرحلة عند (شليخر) تناظر المراحل التطويرية في علم الأحياء ، «فمرحلة الانفصال تشبه المرحلة الأولى للخليقة حيث كانت الأحياء تتكون من خلية واحدة لا تتميز بكونها نباتا أو حيوانا مذكرا أو مؤنثا ، أما مرحلة اللصق فتشبه المرحلة التي كانت الأحياء فيها مكونة من عدد من الخلايا تكويننا بسيطا ، أما المرحلة الثالثة من مراحل اللغة فتشبه المرحلة التي تصل فيها الأحياء إلى التركيب المعقد الذي يميز النبات منها عن الحيوان ، والمذكر عن المؤنث ، وهذا النوع عن ذلك»^(٢٠) .

وقد امتدت مباحث الداروينيين من علماء اللغة إلى قوانين التطور الصوتية وقانون (مندل) في الوراثة . فقد رد بعض الباحثين اختلاف الأصوات الحديثة عن الأصوات

القديمة في لغة من اللغات إلى أن الأعضاء الصوتية في الجماعة الحديثة تختلف اختلافاً تشريحيًا عما كانت عليه عند الأجيال المتقدمة^(٢١). وقال آخرون بأثر اختلاف الظروف البيئية في اختلاف الأصوات، فلو هاجر بعض أبناء جماعة لغوية إلى منطقة أخرى مختلفة من حيث البيئة عن التي كانوا يسكنونها من قبل فإن ذلك يعد سبباً كافياً في تغيير أصوات اللغة التي يتكلمونها؛ لأن قسوة الطبيعة أو رقتها تؤثر عليهم غلظة أو شدة^(٢٢).

وقد حاول بعض اللغويين تطبيق قانون (مندل) في الوراثة على التطور اللغوي، فذهبوا إلى أن ما يبدو من تغيير في اللغة ليس سوى خصائص لغوية مورثة عن الأمهات والآباء^(٢٣). على نحو ما تورث صفاتهم الجسدية والعقلية، وكثيراً ما يحدث أن يطرأ على اللغة تغيرات بعيدة، كأن تأخذ من أجيال سابقة بعض الخصائص اللغوية التي كانت سائدة لديها^(٢٤).

ولا يخفى ما لهذه الآراء في التطور الصوتي والوراثي من صلة قوية بأسانيد (داروين) التي سبق لنا ذكرها، فقد قال بتطور الأعضاء على مدى أزمان بعيدة، وقال بأثر البيئة في التطور، وزعم أن الخصائص التي يمتاز بها أفراد الحيوان قابلة للانتقال معها إلى أولادها^(٢٥).

وهكذا فإن بوسعنا بعد هذا التطواف أن نخلص إلى أن النظرية الداروينية في اللغة تقوم على اعتبار اللغة أمراً طبيعياً لا إلهاماً من الله، وأنها ليست قصراً على الإنسان، بل إن للحيوان لغته التي هي أدنى رقياً من لغة الإنسان، واللغات كائنات حية مصطرعة متناحرة على البقاء، تتطور تطور العضو، وتحقق تطورها سلباً أو إيجاباً مستقلة بمعزل عن الناطقين بها، فهي ليست تلو حالتهم أو مرآة لهم.

ويعدُّ هذان الرأيان - أي صفة العضوية والاستقلالية - من أكثر المواطن في النظرية الداروينية عرضة لانتقاد الناقدين، وثورة الثائرين عليها^(٢٦).

ذلك طرف من خبر الداروينية في الفكر الغربي عامة، وفي الفكر اللغوي خاصة، أما أمرها في الوطن العربي، فقد وصلت إلينا مع بداية الربع الأخير من القرن التاسع عشر تقريباً، وبومها كان جل المجتمع العربي في طول الوطن وعرضه لا يحرك ساكناً لما هو عليه من تخلف وجهل^(٢٧)، اللهم إلا ما كان في مصر من بصيص الأنوار الفكرية التي كان

محمد علي قد أوقد جذوتها في الثلث الأول من القرن التاسع عشر ، وما كان كذلك من الحركة الفكرية التي اطلع بها نصارى الشام - بفضل الامتيازات التي أعطوها - والتي نقلوها معهم إلى مصر^(٢٨) ، وبعثوها فيما نشروا من صحف ومجلات^(٢٩) .

في هذه الأثناء هبت رياح الداروينية على الوطن العربي فتلقاها أكثر المستنيرين وجلهم من النصارى^(٣٠) ، بمثل ما قوبلت في الغرب من نقد مرير ، ولكنها وجدت أذناً تسمعها وتدعولها^(٣١) ، وطفقت (المقطف) منذ عام ١٨٨٢ ، ثم (الهلال) بعد ذلك تنشران مقالات ضافية بعنوان : (تشارلز داروين) والمذهب الدارويني ، وتولد اللغات ونموها ، واللغة ومذاهب الماديين . . . الخ^(٣٢) . ولم تلبث حركة البحث اللغوي العربي أن شهدت بفعل الداروينية حركة تأليف وبحث وجدل واسعة دارت في مجملها حول عدد من القضايا ، أهمها ثنتان هما :

١ - آراء في اللغات عامة ، وفي نشوئها وارتقائها خاصة .

٢ - أصول الألفاظ بين الثنائية والثلاثية .

إن مهمة هذا البحث تقضي بعرض هاتين القضيتين وما ولدتا من قضايا ، وبيان أثر ذلك كله في دفع حركة البحث اللغوي العربي على نحو ما نجمله فيما يلي :

آراء في اللغات عامة وفي نشوئها وارتقائها خاصة :

طفقت المباحث اللغوية منذ عام ١٨٨٦ م ، تندافع في الظهور في مقالات وكتب مشبعة بالفكر الدارويني في النشوء والارتقاء ، ففي تموز / يوليو من العام المذكور أخذ يعقوب صرّوف^(٣٣) ، يذيع آراءه في تولد اللغات ونموها^(٣٤) ، وفي الشهر والعام نفسيهما قدم جورجي زيدان^(٣٥) للقرّاء العربي أول مؤلف لغوي عربي حديث قائم على فكرة النشوء والارتقاء ، أعني كتاب (الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية) ثم أتبعه عام ١٩٠٤ م بكتابه الثاني (اللغة العربية كائن حي) .

وبين عامي ١٨٨٨ و ١٩٢٨ كان جبر ضومط^(٣٦) ، قد نشر جملة من المقالات جمعها وطبعها في كتاب يحمل عنوان (فلسفة اللغة العربية وتطورها) ، ذكر على غلافه أنه مجموعة من المقالات التي تتناول تاريخ اللغة العربية ، ونهضة الأقسام الناطقين بها ، وفلسفة نشوئها ووسائل ترقيتها .

وفي سنة ١٩٣٨م نشر الأب أنستاس ماري الكرملّي^(٣٧) ، كتابه (نشوء اللغة العربية ونموها واكتسهاها) ، ويظهر من عنوانه أنه يقوم على فكرة النشوء والارتقاء في مراحلها المختلفة . وبوسع الباحث أن يلمس أثر الفكر الدارويني في مباحث إسماعيل مظهر^(٣٨) ، وفي الفكرة العامة التي قام عليها كتابه (تجديد العربية) ، وكذا في تقديمه كتاب (مقدمة لدرس لغة العرب لعبد الله العلايلي)^(٣٩) ، وقد تجد صدى الفكر الدارويني بصورة محدودة عند أحمد رضا العاملي^(٤٠) . في كتابه (مولد اللغة) ، وبصورة مستعلنة في مصنفات الأب مرمرجي الدومينيكي ، غير أننا سنكتفي هنا بعرض مباحث الأربعة الأوائل (صُرُوف وزيدان وضومط ، والكرملّي) ، مراعين في تقديمهم ما هو بين أيدينا فعلا من مباحثهم المنشورة .

يعقوب صُرُوف :

في وسع القارئ أن يلحظ ببسر تأثير الباحث بالفكر الدارويني في كثير من المسائل التي عاجلها في مباحثه وإن كنا نلحظ عدم انتصاره لآراء الداروينيين كافة ، وأنه حافظ على استقلاليته في غير موضع ، فإذا ما تخطينا عنوان مباحثه - تولد اللغات ونموها - برائحته التطورية الفواحة ، بدت لنا اللغة عنده بأنها المحكية المنطوق بها للتعبير عما في النفس ، وأن الإنسان قد اكتسبها من خلال ما سمع وقلد من أصوات ، وهي - اللغة - قصر عليه دون سائر المخلوقات^(٤١) ذلك أن الأصوات التي تطلقها الحيوانات للتعبير عن غايات معينة لا ترقى أبدا إلى درجة لغة الإنسان كما وكيفاً ، وقولنا : إن للحيوان لغته هو من باب التوسع^(٤٢) .

واللغة في مجموعها ليست شيئا يرثه الإنسان من أسلافه على نحو ما يرث منهم الهيئة واللون وبعض الطبايع . ولا هي شيء ينمو فيه من نفسه ، نمو أعضائه المختلفة ، بل هي ملكة يكتسبها من محيطه الذي يولد ويعيش فيه . ولكن هنا الرأي ليس على إطلاقه ، فقد يكون للوراثة قدر قليل من التأثير في اللغة^(٤٣) ، يقول صُرُوف : «إن جميع الزوج الذين سمعناهم يتكلمون العربية في بر الشام ، وجدنا في لهجتهم شيئا يميزها عن اللهجة الشامية ، ولو كانوا قد ولدوا في بلاد الشام ، وعندنا أن ذلك تسبب عن تركيب خاص في

حناجرهم وأفواههم تصل إليهم بالإرث ، غير أن هذه الخاصية الجنسية لا تدوم في نسلهم
زمننا طويلا»^(٤٤) .

ولغات العالم على كثرتها واختلافها تترد بأصلها إلى لغة واحدة ؛ لأن البشر الذين
يتكلمونها هم من نسل أب واحد هو صاحب اللغة الأولى المجهولة التي تفرعت عنها اللغات
الأم المعروفة^(٤٥) ، كما تفرعت هذه بدورها إلى أمهات كثر ، وقد تم ذلك على مدى أزمان
طويلة بفعل ابتعاد اللهجات عن الأصل الذي اشتقت منه ، حتى صارت لغات قائمة
بذاتها ■ ومثلنا على ذلك الإنجليزية التي اشتقت من الجرمانية القديمة ، والفرنسية التي
اشتقت من اللاتينية ، وعلى هذا النمط اشتقت لغات البشر بعضها من بعض ، وكثر عددها
على مدى التاريخ الطويل^(٤٦) .

إن اللغات الحية عنده كالجسم الحي تولد ، وتنمو ، وتشب ، وتشيخ ، وتهرم ، وتموت^(٤٧)
شأنها في ذلك شأن كل الكائنات الحية ، فهي لا تلبث على حالة واحدة ، بل تظل في نمو
دائم وتغير مستمر^(٤٨) . فإذا نظرنا إلى كل لغة من اللغات المستعملة الآن ، وقابلناها بما
كانت عليه منذ ألف سنة ، رأينا أنه قد حدث فيها تغيير كثير ، بين الزيادة والنقصان
والإبقاء والإهمال ، ولم يحدث هذا التغيير بقصد أو تدبير بل جرى على ناموس الطبيعة في
تغيير كل حي نباتا كان أو حيوانا أو لغة^(٤٩) .

جورجي زيدان :^(٥٠)

يستحق جورجي زيدان في مباحثه اللغوية درسا مستقلا مفصلا لكونه صاحب أول
مؤلف عربي في الدرس اللغوي الحديث^(٥١) ، ولتأثره الواضح بالفكر الدارويني في تصنيف
كتابه (الفلسفة اللغوية ، واللغة كائن حي) ، غير أننا سنكتفي في عجالتنا هذه بعرض
مجمل مظاهر تأثير الباحث بنظرية النشوء والارتقاء .

فقد ذكر في مقدمة (الفلسفة اللغوية) أن موضوع الكتاب هو البحث التحليلي في
كيفية نشأة اللغة العربية ، وتكونها باعتبار أنها اكتسابية خاضعة لناموس الارتقاء العام^(٥٢) ،
ثم عقد فصلا في تعريف اللغة وأصل نشأتها فانتهى إلى أن اللغة أصوات يعبر بها كل قوم
عن أغراضهم^(٥٣) ، وهي ليست توقيفية بل اصطلاحية ناشئة عن محاكاة أصوات الطبيعة

وعن الأصوات التي يطلقها الإنسان غريزيا ، وهي قد نشأت في أول أمرها أحادية المقطع ومن هذه الأصوات نشأت ونمت حتى بلغت ما هي عليه الآن بتراكيبها وتنوعها بين نحت وقلب وإبدال واستعارة سدا لاحتياجات الإنسان ، وجريا على ناموس الإرتقاء العام^(٥٤) .

وقد أدار بحثه - بعد ذلك - على خمس قضايا ونتيجة كلها ذات صلة بالفكر الدارويني هي :

القضية الأولى : إن الألفاظ المتقاربة لفظا ومعنى هي تنوعات لفظ واحد ، وإن هذه التنوعات قد حصلت بموجب ناموسين عظيمي الاعتبار هما : القلب والإبدال .

والقلب هو تقديم أحد حروف اللفظ الواحد أو تأخيريه مع حفظ معناه ، أو تغييره تغييرا طفيفا ، وهو أقل وروداً من الإبدال ، ومن أمثله قولهم بمعنى واحد : لطم ولط ، وبعزق وزعق ... الخ^(٥٥) .

وأما الإبدال فهو أعظم أهمية في ألفاظ اللغة ، ونعني به إبدال حرف من كلمة ما بحرف يقرب منه لفظا ، ويحصل الإبدال غالبا بين الحروف التي هي من مخرج واحد أو من مخارج متقاربة ، ومن أمثلة التقارب الحاصل بين أصوات الفاء والثاء مثلا قولهم : ثلغ وقلغ بمعنى شق^(٥٦) .

القضية الثانية : إن الألفاظ المانعة الدالة على معنى في غيرها هي بقايا ألفاظ ذات معنى في نفسها ، ويشتمل هذا النوع من الألفاظ على الحروف وما يشبهها وأحرف الزيادة الداخلة على الأفعال والأسماء في الاشتقاق^(٥٧) .

وقد استعان في تمكين فكرته بمقارنة بين لغات سامية متعددة كقوله في مسألة (مع) : يستعمل العبرانيون (عم) والسريانيون (عم) لما هو في لغتنا (مع) حرف عطف ، واللفظة عينها في العبرانية وما يقابلها في السريانية تستعمل بمعنى شعب والعم الشرعي ، فيستدل من كل ذلك أن الأصل فيها الاجتماع والاتحاد ، فاستعملوها اسما وأداة عطف كما رأيت ، ولا يخفى أن (مع) مقلوبة عن عم^(٥٨) .

القضية الثالثة : إن الألفاظ المانعة الدالة على معنى في نفسها يرد معظمها بالاستقراء إلى أصول ثنائية أحادية المقطع تحاكي أصواتا طبيعية^(٥٩) ، وستناول هذه المسألة بالتفصيل في مبحث مستقل باعتبارها ثمرة من ثمار الفكر الدارويني .

القضية الرابعة : إن جميع الألفاظ المطلقة قابلة للرد بالاستقراء إلى لفظة واحدة أو

بضع الفاظ ، وهي تشمل : الضمائر ، واسم الإشارة ، واسم الموصول . فالتأمل في هذه الألفاظ في لغات مختلفة يكاد ينتهي إلى أنها واحدة في جميعها ، وأنها من الأدلة الواضحة على وحدة الأصل فيها ^(٦٠) .

القضية الخامسة : إن ما يستعمل للدلالة المعنوية من الأسماء والأفعال قد وضع أصلا للدلالة الحسية ثم حمل على المجاز لتشابهه في الصور الذهنية ، فالفعل (فصل) إنما نشأ أولا للدلالة الحسية على القطع ، ثم ما لبث أن حمل على المجاز للدلالة المعنوية في مثل قولنا : فصل الحكم الخصومات ، وفصل المولود عن الرضاع أي قطعه ^(٦١) .

وتفضي نتيجة هذه المقدمات إلى أن لغتنا في أول عهدها قد تألفت من أصول قليلة أحادية المقطع معظمها مأخوذ عن محاكاة الأصوات الخارجية ، وبعضها مأخوذ عن الأصوات الطبيعية التي ينطق بها الإنسان غريزيا كالتأوه والزفير ^(٦٢) .

وهكذا فقد تبين لنا أن كتاب (الفلسفة اللغوية) قد عالج اللغة في تعريفها ونشأتها من أصوات قليلة ، وكيف ارتقت تلك الأصوات حتى صارت ألفاظا ، وتكونت اللغة على نحو ما هي عليه .

أما كتابه الثاني (اللغة العربية كائن حي) فقد تناول فيه ألفاظ العربية وتراكيبها بعد تمام تكونها ، فبحث فيما طرأ عليها من التغيير بالتجديد أو الدثور ، فوقف على قدر من الألفاظ والتراكيب التي دثرت من اللغة بالاستعمال ، وما قام مقامها من الألفاظ والتراكيب الجديدة ، وما تولد فيها أو اقتبسته من سواها مع بيان الأحوال التي قضت بدثور القديم وتولد الجديد ، وساق أمثلة مما دثر أو أهمل أو تولد ، أو دخل ، خلال تاريخ العربية الطويل في عصورها المتعددة منذ الجاهلية حتى نهضتنا الحديثة ^(٦٣) .

وقد صدر الكتاب بتمهيد في نواميس الحياة وخضوع اللغة لها . فذكر أن النمو من أهم نواميس الحياة ، وهو ينطوي على دثور الأنسجة وتوليد ما يحل محلها ، ومعنى ذلك أن الجسم الحي مؤلف من خلايا لكل منها حياة مستقلة ، إذا انقضت ماتت الخلية ، وتولدت في مكانها خلية جديدة . واللغة عنده شأنها شأن الجسم الحي تتبعه في الخضوع لهذه النواميس ، فهي كائن حي تام خاضع لناموس الارتقاء ، ولا بد من توالي الدثور والتولد فيها أراد أصحابها ذلك أم لم يريدوا ^(٦٤) .

جبر ضومط

كتب يعقوب صروف سنة ١٩٢٧م مقالة بعنوان (الأستاذ جبر ضومط ومباحثه في نشوء اللغة العربية)^(٦٥) حيث وقف طويلا عند كتاب صغير لضومط بعنوان (الخواطر في اللغة) نشر ١٨٨٥م وما ذكره في شأن الكتاب أنه على صغره قد جمع أكثر المبادئ الأولية التي سارت عليها اللغة في نشوئها وارتقائها وهو بحث مبتكر، وأن مؤلفه يماثل (ليل) في علم البيولوجيا، وطبقات الأرض ولامارك وداروين في نشوء الأحياء وتولد بعضها عن بعض، ومندل في كشف ناموس الوراثة وتطبيقه على الأحياء^(٦٦).

ومن الأمثلة الكثيرة التي ساقها صروف من كتاب الخواطر، أن بناء الفعل (جلس) على فتح آخره وتعديته بالهمزة واتصاله ببناء المتكلم المضمومة أو المخاطب المفتوحة أو المخاطبة المكسورة، أن هذه الصور كلها قد بلغت حدا من الرقي بعد أن دخلها المزج والنحت مدة قرون لا تحصى^(٦٧). قال في معرض كلامه على الضمائر: «ومن هذا القبيل تعليله للضمائر، فإن لضمير المتكلم في العربية صورة واحدة وهي (أنا) مفردا و (نحن) جمعا، وفي السريانية: أنا مفردا و (انحن) جمعا، وفي العبرانية (أني أو أنوخي) مفردا و (أنحن) أو (نحن) أو (أنو) جمعا، وواضح من ذلك أن اللفظة (نحن) العربية مركبة من نا أو أنوخي العبرانية ألحق آخرها بالنون الدالة على الجمع»^(٦٨) ثم بين أن الضمائر المتصلة منحوتات من الضمائر المنفصلة، فالتا المضمومة من أنوخي، والمفتوحة من أنت، والمكسورة من أنت والواو من همون أو همو، والنون في: ضرين من هن، ونا من نحن، وهلم جرا... الخ^(٦٩).

ومن سوء حظنا أننا لم نهتد إلى هذا الكتاب ذي الأهمية التاريخية والموضوعية، ومن سوء الحظ كذلك أننا لم نعثر على أثر من هذه الأفكار في كتاب جبر ضومط (الخواطر العراب في النحو والإعراب) فقد عرض مادة النحو والصرف بمنأى عن فكرة التطور^(٧٠).

وأما كتاب (فلسفة اللغة العربية وتطورها) فقد سبق لنا أن ذكرنا أنه زين غلافه بقوله «إنه مجموعة مقالات في تاريخ اللغة العربية ونهضة الأقسام الناطقين بها وفلسفة نشوئها وترقيتها»، ومقالات الكتاب الثلاث والعشرون لا تكاد تجمعها فكرة واحدة، لكن الذي يعيننا منها ثلاث مقالات^(٧١) تضمنت آراءه في مسألة النشوء والارتقاء في اللغات عامة والعربية خاصة.

ينطلق جبر ضومط في مقالاته من إيمان عميق بأنه إذا كان ثمة لغة تستحق أن توصف بالحיוية والنماء فهي اللغة العربية لتمييزها على غيرها بمفوم جوهرى هو الاشتقاق عماد اللغة وأقوم مقوماتها : «وبعبارة أخرى هو حياتها وعليه يتوقف ارتقاؤها أو انحطاطها ، تقدمها أو تأخرها . . . وقد لا يخطئ من يقول إن اللغة هي الاشتقاق»^(٧٢) وألفاظ اللغة تموت وتحيا أي يهمل استعمال بعضها فتموت ، ويستجد استعمال أخرى فتحيا ، ولا يمضي زمان يذكر إلا ويموت كثير من الألفاظ في كل لغة ومن بينها العربية ، ويحيا كثير أيضا ، واللغات النامية المرتقية هي ما كانت مواليد ألفاظها أكثر من وفياتها ، والعاقلة المتأمل يعلم أن كثرة مواليد الألفاظ وقتلتها في اللغة يتوقف على الاشتقاق ، فإن كان الاشتقاق مرتقياً نشيطاً كثرت مواليد وعاشت مواليد وإلا قلت وماتت . وعليه فأرقى اللغات وأكثرها حياة هي ما كان الاشتقاق فيها أتم منه في سواها ، داخلا في كل فرع من فروعها^(٧٣) .

واللغة العربية قديمة النشأة ، ولا بد أنها في أطوارها السحيقة قد أخذت في الارتقاء حتى وصلتنا في صورتها المحكمة الراقية في أشعار الجاهليين ونثرهم ، وأنها منذ عهدنا بالإسلام والفتوحات الإسلامية وحتى اليوم قد مرت - حسب فاعلية أصحابها - بين مد وجزر فدخلت فيها ألفاظ كثيرة وخرجت من دائرة الاستعمال الفاظ مثلها في الكثرة ، وقد طرأ على لغة الكلام من التطور والتغيير ما يفسد بفعل التطور العلمي والمدني^(٧٤) .

تلك خلاصة الأفكار التي تضمنها كتاب (فلسفة اللغة العربية) ، وهي كما يبدو لا تلبي ما كنا نطمح إليه من التعمق في تناول نشوء اللغة وتطورها بدرجة تتساوى مع ما أغرانا به الإعلان الدارويني البراق الذي تصدر غلاف الكتاب ، كما لا يتساوى مع ما ألح عليه صروف من أن مكانة ضومط وأبحاثه تشبه مكانة (داروين ، ولا مارك وليل ، ومندل) وأبحاثهم ، ولعل مرد خيبة أملنا عدم اطلاعنا على كتاب (الخواطر في اللغة) الذي أشار إليه صروف في مقاله التي كتبها في الأستاذ جبر ضومط ، ومباحثه في نشوء اللغة وارتقاؤها .

الأب أنستاس ماري الكرملي

ذكر الأب أنستاس أنه شرع منذ عام ١٨٨١م يذيع آراءه في نشوء اللغة وارتقاؤها^(٧٥) وقد بسط أفكاره - فيما بعد - في كتابه (نشوء اللغة العربية) وفي معجمه (المساعد) وكذا

في مقالاته التي نشرها على صفحات مجلات لغة العرب ، ومجمع اللغة العربية في مصر والمجمع العلمي العربي في دمشق . . . الخ .

ومجمل فلسفته في هذه المسألة أن ألفاظ اللغة العدنانية ثنائية في أصل نشأتها ، وقد وضعت على هجاء متحرك فساكن محاكاة لأصوات الطبيعة ، ثم زيدت حرفا ثالثا في الصدر ، أو الحشو أو الذيل للثبوت من تحقيق نطق الحرف الثاني من الكلمة ، «ومنذ ذلك الحين بنيت كل لفظة عربية على ثلاثة أحرف وصارت لها كالأثافي ، وعليها أحكم وضع أصولها ، وما زيد على ذلك القدر من الأحرف ألحق بها لغايات شتى يذكرها علماء العربية في مطاوي مباحثهم»^(٧٦) .

ويرى أن اللغة العربية في طورها التالي قد توسعت توسعا لا يقابله شيء في سائر اللغات المعروفة لما وقع في لغة الضاد من القلب ، والإبدال ، والتصحييف ، والتحريف ، وتشابه رسم الحروف والتعريب . وقد مثل لكل مسألة بفيض وافر من الألفاظ التي استحدثت بفعل ظاهرة من الظواهر المذكورة^(٧٧) ثم ختم آراءه في تطور العربية بقوله : إنها بلغت من الرقي درجة تكاملها باكتهاها أي بنظامها الاشتقاقي الواسع القادر على استحداث مولدات جديدة دوغما مشقة^(٧٨) .

ومن آرائه ذات الوجه الدارويني زعمه وجود قرابة بين اللغات المتنافرة^(٧٩) ، وعلل ذلك بأن «الأم كلها ، ساميها وحاميها ويافيثها ، كانت يوما من الأيام مجتمعة في صعيد واحد ، مختلطة أفرادها بعضهم ببعض ، تتكلم وتتفاهم بما يكون لغة شاملة الجميع ، وقد بقيت آثارها في الألفاظ البسيطة التركيب ، الأولية البنية محاكاة للطبيعة»^(٨٠) .

وقد تحرى مظاهر هذه القرابة في صور مناظرات بين العربية وسائر اللغات القديمة والحديثة ، فقال في مسألة تناظر العربية واليونانية واللاتينية : «وقد وجدنا المشابهات بين العربية واللغتين المؤتمتين (أي اليونانية واللاتينية) عظيمة جدا وبلغ بنا الاستقراء إلى هذه القاعدة وهي : كل لفظة يونانية أو لاتينية ذات هجاء واحد أو هجائين فلا بد من أن يكون لها مقابل في المصرية ، وقد تتفق معا في اللفظتين كل الاتفاق ، وقد تبتعد قليلا ، وهذا لا بد منه بعد نزوح الدار ، واختلاف العادات والأخلاق . . . إلى غير هذه الأمور التي تؤثر في المرء تأثيرا لا يمكن إنكاره»^(٨١) .

وقد خلص من مناظرة العربية بالسكسونية إلى أن ثمة كلمات لم تزل ألفاظها ومعانيها تشكل بقايا عرى القرابة بين العربية واللغة السكسونية ، منها مثلا : BUT الإنجليزية وعلاقتها بكلمة (بيد) ، ومثلها BUY و(باع) ، THEN و (إذن) . . . الخ^(٨٢) وقد رد هذا التوافق في الكلمات المذكورة إلى اتصال عرب العراق في الأزمنة الغابرة بالسكسون وهم قبيل من الجرمان الآريين الذين سكنوا إيران^(٨٣) .

وقد عزز رأيه في تناظراته بطرحه سؤالا افتراضيا هو : كيف يسوغ القول بالتناظر بين العربية واللغات اليونانية واللاتينية والسكسونية علما بأن العربية العصرية أو تلك التي استحكمت أصولها قبيل الإسلام غير العربية القديمة التي عاشت في العصور الضاربة في القدم ؟ فكان جوابه بأنه لا ينكر أن الصيغ ، والتراكيب والمباني قد اختلفت عما كانت عليه في الأزمان البعيدة العهد ، إلا أن مادتها الأصلية واحدة ، وهذا هو المهم والمعول عليه في معارضته اللغى بعضها ببعض^(٨٤) .

وقد عقب إبراهيم السمراي على مناظرات الأب (أنستاس) فوصفها بأنها اجتهادات من الغرائب والفرائد ، قال : «والافتراض أن الجرمان الآريين اتصلوا عن طريق إيران بالعرب في العراق شيء يفترق إلى السند التاريخي ، وإذا كان هذا التقارب الضئيل في الألفاظ ، فليس لنا أن نوسع مقالتنا بالقول في مسألة تاريخية لم تعرف ضبطا وتحديدا^(٨٥)» .

وقال ميشال زكريا في مسألة قرابة اللغات المختلفة : «أثبتت التجارب أنه لا يعول مطلقا على التوافق بين المفردات في عملية إثبات القرابة بين اللغات ، ذلك أنه بإمكان عدد كبير من المفردات الانتقال من لغة إلى أخرى ، إبان امتزاج الشعوب مهما تكن هاتان اللغتان مختلفتين أصلا ونموذجا^(٨٦)» .

وفي ظني أن هذا التقارب الضئيل في الألفاظ - إذا لم يكن وليد الصدفة - يظل درسه نافعا في حدود المعقول والمقبول ، أما ما تراه في (المعجم المساعد) من تناظر بين العربية واليونانية فقد يخشى أن يكون فيه قدر من المغالاة^(٨٧) .

وعلى أية حال فإنه يهمني في أعقاب استعراض هذه المباحث أن يكون القارئ العربي قد أطمأن إلى حقيقة لا تغل من ترادها هي أن فلسفة النشوء والارتقاء قد عملت عملها

الواضح في إذكاء حركة البحث اللغوي العربي ، وفي توجيهها كذلك . وتلك غاية بحثنا في هذه القضية .

ثنائية الأصول اللغوية :

خلاصة هذه المسألة أن الكلمات العربية تتألف من أصول ثنائية ، وأن ما تراه من ألفاظ ثلاثية أو أكثر إنما هي مستنبطة من حرفين أساسيين شديدين أو رخوين أو متوسطين بين الشئدة والرخاوة ، وأن نشأة المادة اللغوية الأولى كانت محاكاة لأصوات الطبيعة ، ولما يطلق الإنسان من أصوات ، وأن تثليث المادة اللغوية قد تم بتضعيف الحرف الثاني ، أو بإضافة حرف آخر هو في الغالب حرف علة أو أحد أحرف الذلاقة أو الحلق أو الصفير^(٨٨) .

وقد بات الكلام على الثنائية مشغلة الدرس اللغوي منذ بداية الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ، بعيد شيوع المذهب الدارويني الذي ترك أثراً جلياً على مجمل العلوم ومنها اللغة ، إذ أقبل باحثوها على تناول الجذر أو الأصل الذي اشتقت منه الكلمات فانتهوا إلى أنه في الكلمات القديمة كان أحادي المقطع يتألف من حرفين متحرك وساكن ، وأنه تطور بتالي العصور إلى ثنائي المقطع فثلاثي ، حتى صارت الكلمات على النحو المألوف لنا الآن^(٨٩) .

وأول من تكلم على الثنائية من العرب في العصر الحديث^(٩٠) هو الشيخ أحمد فارس الشدياق^(٩١) في (سر الليال في القلب والإبدال) الذي طبعه بالآستانة سنة ١٢٨٤ هـ - ١٨٧٠م فلبه يقوم على أساس الثنائية متأثراً في ذلك بنظرية النشوء والارتقاء في نظر إبراهيم أنيس^(٩٢) .

إن القرائن كلها تغرينا بالقول بأن الشدياق في (سر الليال) كان متأثراً بالنظريات اللغوية المعاصرة وبنظرية النشوء والارتقاء على وجه التحديد^(٩٣) ، غير أن من الصواب ألا نهمل أثر مطالعته الواسعة في التراث الإسلامي والثقافة العربية في قيام نظريته الاشتقاقية القائمة على الثنائية بأسسها الأربعة .

الأساس الأول : قوله بنشأة اللغة محاكاة للأصوات الطبيعية واتخاذها المضاعف أصلاً للنشأة حيث يقول : «إني رأيت أن معظم اللغة مأخوذة من حكاية صوت أو حكاية صنعة وأن

حكاية الصوت إنما تأتي من المضاعف نحو : دب ودف ودق وهز وسف وقر ، فإذا أرادوا الزيادة في المعنى ضاعفوا الحرف فقالوا : دبذب ، ددبب ، ددقق ، هزهز ، سفسف ، قرقر^(٩٤) .

إنّ هذا الأساس وإن كان جائزاً أنه مستوحى من آراء العلماء الغربيين فإن فيه مالا يخفى من التأثير بالنص الشهير في الخصائص^(٩٥) «وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات ، كدوي الريح ، وحنين الرعد ، وخرير الماء ، ونهيق الحمار ، ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس ، ونحو ذلك ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد ، وهذا عندي وجه صالح ، ومذهب متقبل»^(٩٦) .

الأساس الثاني : زيادة المبنى تعقب زيادة المعنى . إذ يرى الشدياق أن الثنائيات تدل على معان عامة ولكنها إذا ما زيدت فصارت ثلاثية أو أكثر تحدد معناها زيادة على اشتراكها في المعنى الأصلي لجذرها الثنائي^(٩٧) .

إن الربط بين زيادة المبنى لزيادة المعنى ليس بجديد ولا هو من مستحدثات الحضارة العصرية بل هو قديم قدم التأليف اللغوي ، إذ يظهر ذلك بوضوح في مقدمة كتاب العين للخليل ، وفيه «صر الجندب صريراً وصرصر الأخطب صرصرة ، فكأنهم توهموا في صوت الجندب عدا وتوهموا في صوت الأخطب ترجيعا ، ونحو ذلك كثير مختلف»^(٩٨) .

الأساس الثالث : القيمة المعنوية للصوت ، فمن أسرار العربية عند الشدياق أن كل حرف يختص بمعنى من المعاني دون غيره ، فحرف الحاء يفيد السعة والانبساط ، والذال للين والنعومة ، والميم للمقطع .. الخ^(٩٩) .

وهذا الرأي - وإن بدا مبتكراً - قريب مما ذهب إليه ابن جني في تخصيصه الصوت بقيمة معنوية ، ففي الحاء مثلاً رخاوة ، وفي القاف صلابة .. الخ^(١٠٠) .

الأساس الرابع : القلب ، إذ بنى الشدياق سر الليال على ذكر المادة اللغوية الثنائية ثم مقلوبها ثم مجانسها وهو في هذا الصنيع ربما كان متأثراً بالمعجميين العرب القدامى ، يقول رمزي بعلبكي : «إن قلب المادة الثنائية ، وإفراد الثنائي في قسم خاص من أقدم سمات المعجم العربي ، كذا صنع الخليل في كتاب العين .. وكذا صنع أيضاً ابن دريد ، بل إن ابن دريد جاوز الخليل إذ جعل الثنائي الصحيح كله في باب كبير ولم يوزعه على رؤوس الحروف

المتفرقة ، كما أفرد بابا ينتظم كل ثنائي ملحق ببناء الرباعي المكرر معتمداً القلب في كل مادة» (١٠١) .

وهكذا ترانا ننتهي بعيد تطوافنا حول ثنائية الشدياق وأصولها إلى ما ابتدأنا به هذا البحث . فالقارئ كلها تغرينا بالقول بأن الشدياق في سر الليال كان متأثراً بالنظريات اللغوية الحديثة خاصة ما أفرزته النظرية الداروينية في مسألة النشوء والارتقاء ، وأنه في الوقت ذاته كان أسير ثقافته التراثية الواسعة ، حتى إن كفة أثر التراثية ترجح عند بعض الباحثين على أثر النظريات اللغوية المعاصرة (١٠٢) .

وعلى أية حال فإن الشدياق يعد أول من تكلم من العرب على الثنائية في العصر الحاضر ، ثم تلاه جورجي زيدان في كتابه الفلسفة اللغوية الذي كان ثمرة من ثمار الفكر الدارويني على نحو ما أسلفنا .

فقد أشرت فيما مضى إلى أن زيدان ذكر في القضية الثالثة : «أن الألفاظ المانعة الدالة على معنى في نفسها يرد معظمها بالاسترقاء إلى أصول ثنائية أحادية المقطع تحاكي أصواتاً طبيعية» (١٠٣) ، وتشتمل هذه الألفاظ على الاسم والفعل وما يشتق منهما ، واللغويون يردون كلا من الاسم والفعل إلى أصول معظمها ثلاثية وبعضها رباعية ولا يرون هذه الأصول قابلة للرد إلى أقل من ذلك ، أما عند جورجي زيدان فهي تقبل ذلك ولو بعد العناء (١٠٤) .

فالألفاظ الرباعية هي في أصلها ثلاثية مزيدة بحرف أصلي نحو جلبب وبلبل ، أو بحرف دخيل كما في نبذر بمعنى بذر وسلطح بمعنى سطح ، وبعثر بمعنى بعث وقطر من قطع وقس عليه (١٠٥) .

وهكذا نرى أن الأصول الرباعية مزيدة والأصل فيها ثلاثي ، والثلاثي ، أيضاً مزيد الأصل فيه ثنائي غالباً . فالكلمات قط - قطب - قطع - قطف - قطم - قطل جميعها تشترك بحرفين هما الأصل المتضمن المعنى الأصلي لها وهو القطع إلا أن كل واحدة من الألفاظ المذكورة بعد زيادتها قد استعملت لتنوع من تنوعات معنى القطع (١٠٦) .

وقد تحدثت الزيادة في آخر الكلمة على نحو ما قلنا وهو الأغلب ، وقد تكون في الوسط

بن الحرفين الأصليين نحو: فرق من فق ، وقرض من قض وقرص من قص - وقد تكون في أول الكلمة نحو: رفت من فت ولهب من هب ورفض من فض .. الخ^(١٠٧) .

وينتهي من عرض أمثلته التي لا تخلو من العناء والتكلف^(١٠٨) إلى القول : «والخلاصة أننا نستدل من إمكان تجريد قسم عظيم من الأصول الثلاثية إلى أصول ثنائية تحاكي أصواتاً طبيعية ، ومن كون ألفاظ اللغة من شأنها الغير والتنوع لفظاً ومعنى ، على أن الألفاظ المانعة الدالة على معنى في نفسها يرد معظمها إلى أصول ثنائية أحادية المقطع تحاكي أصواتاً طبيعية»^(١٠٩) .

ذلك عرض موجز لآراء زيدان في ثنائية الألفاظ ، ويكاد الأب أنستاس ماري الكرمليني يكون مطابقاً له فيما ذهب إليه بأن نشأة الألفاظ وتطورها ، وهي مطابقة ليست عن تأثر بقدر ما هي ناتجة عن توافق منطقي . ونحن هنا نكتفي بما سبق لنا أن عرضناه للكرمليني من آراء في هذه المسألة^(١١٠) ، فاسحين المجال لما أحدثه الأب مرمرجي الدومينيكي من ضجة في حركة البحث اللغوي حول الثنائية ، وذلك من خلال مؤلفاته المشهورة^(١١١) وكذا من خلال محاضراته التي ألقاها بجمع اللغة العربية بعنوان : (الثنائية والألسنية السامية)^(١١٢) .

لقد استفاد الأب مرمرجي كثيراً من ثقافته العربية ، وكذا الغربية العصرية ، ومعرفته باللغات السامية ، ووظف ذلك كله في إقامة أود النظرية الثنائية حتى بلغت من التماسك حداً يكاد يغري المرء بالقول بها^(١١٣) وقد أشار في مقدمة كتابيه (المعجمية العربية) و (مجمعات عربية سامية) إلى الثنائيين العرب القدامى والمحدثين ، وكذا القائلين بالثنائية من المستشرقين^(١١٤) ثم عرض كما كبيراً من الألفاظ ذات الأصول الثنائية ، نجد مثلاً على ذلك كلمة الفصح ، إذ رأى أن الأصل السامي لهذه الكلمة كان يتألف من الحرفين الأولين أي الفاء والصاد أو ما يشبهها كالباء والسين أو الشين ، وساق لنا كلمات من اللغات السامية المختلفة تكون كل منها من حرفين الأول شفوي والثاني من حروف الصفيير وكل هذه الكلمات التي ذكرها تعبر عن معنى الخروج أو الانتشار أو الانفصال ... الخ ثم افترض أن الأصل السامي الثنائي قد زاد مبناه باتصال الصوت الحلقي وهو الحاء وتخصص المعنى الأصلي وأصبح مقصوراً على الاجتياز والعبور . وهكذا نشأت كلمة الفصح الشائعة في

العبرية بوصفه عيداً . ويرى الأب مرمرجي أن الكلمة في صورتها الثلاثية ومعناها الخاص قد انتقلت من العبرية إلى شقيقاتها السامية ، وأنه لولا رجوعنا إلى الأصل الثنائي ما استطعنا الربط بين هذه اللغات في اشتقاق هذه الكلمات ؛ لأن المعنى يكاد يتحد بين هذه اللغات حين تقتصر على الأصل الثنائي (١١٥) .

والثنائية عند الأب ليست هدامة الثلاثية والرباعية ولا هي مقوضة أركان المعاجم ، إنما هي وسيلة للتأصيل السابق طور التصريف . فالقائل بالثنائية يدع التصريف على ما هو للثلاثي والرباعي ويحصر عمله في المعجمية ، وفي هذا الحقل عينه لا يتوخى ملحق الثلاثي والرباعي ولكنه يرتئي بأنه كما أن الرباعي يسوغ رده إلى الثلاثي كذلك يمكن رد الثلاثي إلى الثنائي ما ينجم عنه أن ليس الثلاثي بدء الاشتقاق بل الثنائي .

ويرى عمليا أن في هذه النظرية فوائد جمّة للمعجمين ، منها تجلي الانسجام والتساوق في تشعب الألفاظ بعضها من بعض ، وتوسع المعاني وتطورها ما هو واضح القصد في الحالة الثلاثية الحاضرة (١١٦) .

لقد أحدثت النظرية الثنائية ضجيجاً في حركة البحث اللغوي بعد الدومينيكي فمن منتصر إلى معترض وإلى مناقش (١١٧) فممن انتصر لها بدرجات متفاوتة ، عبد الله العلايلي (١١٨) وحامد عبد القادر (١١٩) وباكرة رفيق حلمي (١٢٠) ، وتوفيق محمد شاهين (١٢١) . وخلاصة رأي هؤلاء أن الثنائي أكثر وروداً من الثلاثي وأن عدداً كبيراً جداً من الأصول الثلاثية وما فوقها يرد إلى أصولها ثنائية الأصل (١٢٢) .

وفي مقابل هذا الاتجاه نرى إبراهيم أنيس يذهب مذهبا من الغرابة إذ يرى أن الكلمة الكبيرة كثيرة الحروف والمقاطع هي الأصل وأن ميل الإنسان في أطوار حياته نحو السهولة والتيسير قد دفعه إلى اختزال الكلمات الكبيرة لا زيادتها «وأن اللغات في أقدم صورها المعروفة كانت تتضمن كلمات كبيرة الحروف طويلة البنية متعددة المقاطع ، وأن هذه الكلمات بتوالي العصور قد أصبحت قصيرة البنية قليلة المقاطع ، وقد تم هذا نتيجة الميل العام لدى الإنسان في كل شؤونه الاجتماعية ومنها اللغة نحو أيسر السبل وبذل أقل المجهود» (١٢٣) .

وقد ختم بحثه بقوله : «وإذا صح بعد هذا ما يقول به بعض الدارسين من أن الإنسان

الأول بدأ كلامه بألفاظ ثنائية الحروف ثم تطورت إلى ثلاثية الحروف . الخ . فقد كنا نتوقع بعد مرور تلك الملايين من السنين على النطق الإنساني أن تصبح كلماته الآن معظمها من رباعيات الأصول أو خماسياتها ، أو على الأقل كان يجب أن يكون عدد الكلمات الرباعية الأصول في لغتنا العربية أكثر من عدد الكلمات الثلاثية الأصول أو مساوية لها !! . وننتهي من هذا البحث بتلك الحقيقة العلمية التي يجمع عليها المحدثون من علماء اللغات في العالم وهي : أننا لا نكاد ندري شيئاً من صور الكلمات التي نطق بها الإنسان الأول ، وإنما الذي ندريه ونحزم به هو أن مقارنة صور الكلمات في العصور التاريخية المختلفة قد برهن لنا على أن الميل العام في تطور كل اللغات نحو اختزال البنية في الكلمات»^(١٢٤) .

أما أصحاب الاتجاه الثالث فهم القائلون بوجود الثنائية في أصول بعض ألفاظ العربية والساميات عموماً ، ولكنهم ينكرون رد الكلمات ذات الثلاثة أو الأربعة إلى أصول ثنائية ويمثل هذا الاتجاه الأب هنري فليش^(١٢٥) ومحمود فهمي حجازي^(١٢٦) ورمضان عبد التواب^(١٢٧) إذ يرى هنري فليش أن في العربية عدداً قليلاً من الكلمات ذات الأصول الثنائية وهي عنده سبع وثلاثون كلمة نحو كلمة يد ، وهناك عدد كبير من الكلمات ذات الأصول الرباعية وهي مسجلة في المعاجم ولكن بعض الإحصائيات التي أجريت على النص القرآني كشفت عن وجود خمسة عشر أصلاً رباعياً فحسب في مقابل ألف ومائة وستين أصلاً ثلاثياً ، وهي نسبة جد ضعيفة في نص يعتبر أساسياً في تراث اللغة^(١٢٨) .

والجانب الأكبر من الكلمات العربية يتألف من أصول ثلاثية وهو أساس الاشتقاق فيها^(١٢٩) .

ويرى محمود فهمي حجازي أن البحث المقارن في اللغات السامية قد أثبت أن الأصل الثلاثي كان عاماً في أكثر اللغات السامية ، وأن كلمات يمكن أن ترد إلى أصول ثنائية ، منها مجموعة الأسماء الدالة على القرابة نحو : أب وأم وأخ وعم ، ومجموعة الألفاظ الدالة على جسم الإنسان نحو : يد ودم ورثة ولثة^(١٣٠) . وهناك مجموعة من الأفعال التي نعرفها في شكل ثلاثي يمكن ردها بالمقارنة إلى أصل ثنائي كالفعل سكب . فالظاهر أنه مزيد عن (كب) وسخف عن خف ، ونقص من قص ، ونذل من ذل ، ونجس من جس^(١٣١) .

وخلاصة الرأي في الثنائية عند رمضان عبد التواب أنها وإن وجدت في بعض

الكلمات السامية ، فإننا لا يصح أن نعتها الأصل الأول لهذه اللغات ^(١٣٢) وأن الأب مرمجي الدومنكي قد خدعه ما آل إليه المضعف في بعض اللغات السامية بعد أن سكنت أواخر كلماتها لسقوط الحركات الإعرابية وغيرها ، فضع التضعيف منها ، وصارت على حرفين ، فظن أن هذا هو الأصل فيها . . . ونسي أنه عند إسناد المضاعف إلى الضمائر في العبرية والسريانية يظهر التضعيف ^(١٣٣) .

والى هنا نصل إلى الغاية المقصودة من البحث في هذه المسألة وهي الوقوف على أثر الفكر الدارويني في إذكاء حركة البحث اللغوي العربي . غير أن من الأنسب أن نذيل هذا البحث ببيان موقفنا من هذه القضية .

إن البحث في الثنائية عندي ينطوي على نفع كبير ، ولم يكن عديم الجدوى ، وإن بدا أنه في تعامله مع النشأة الأولى للغة في عصورها السحيقة ربما يكون قريبا من الخوض في ميتافيزيقا التاريخ الغابر .

والقول بأن ألفاظ اللغة نشأت أحادية المقطع محاكية الأصوات الخارجية ، ثم تطورت بعد ذلك إلى الثلاثي والرباعي تنويجا أو إقحاما أو تديلا - إن ذلك يبدو أمرا منطقيا ينسجم مع العقل ولكن السؤال الذي يعترض سبيلنا ههنا منذ متى كانت اللغة تسير في تطورها وفق مقتضيات العقل والمنطق؟! .

وإننا على بعد الشقة بيننا وبين البدايات الأولى لنشأة اللغة قد نجد أن من العسير علينا أن نقنع أنفسنا بأن بعض الكلمات الثلاثية هي مزيدة الثنائي ، وقد عبر عبد الله أمين عن ذلك صراحة بأنه لا يمكننا أن نسلم بأن رجلاً أصله : رج ، وقردا أصله : قر ، وفيلا أصله : في ، كما يقولون ^(١٣٤) غير أن من الثابت لدينا وجود كلمات ثنائية نحو : يد ودم وأب وأم وأخ . . الخ . وليس من الحكمة حمل هذه الكلمات وأمثالها على الثلاثي قسرا ، وأعتقد أن تأويل الصرفين لثلاثيتها ينطوي على قدر واضح من التكلف ، يكاد يساوي تكلف الثنائيين في ردهم الثلاثي والرباعي إلى أصليين .

ومن أغرب القول الزعم بأن الكلمات قد وجدت كثيرة الحروف متعددة المقاطع ثم سارت في تطورها نحو الاختزال والنحت تبعا لقانون السهولة والتميسير الذي يحكم اللغات جميعها ^(١٣٥) .

إن الميل نحو الاختزال والنحت لا يحدث في طور التكون والنشوء بل في عصر الكهولة والهرم . واللغة في هذا الصدد شأنها شأن كل ما يحيط بالإنسان من مستلزماته تنشأ بسيطة ثم تتطور بعد ذلك تطوراً يستلزم تهذيبها على مر الزمان ، فألفاظ لغة الإنسان أشبه بالأشجار من حوله تنمو تلقائياً حتى إذا ما كبرت امتدت إليها يد الإنسان بالتنسيق والتقليم .

وثمة مسألة أخرى يحسن التنبيه عليها وقد ساقها ابراهيم أنيس حجة على عدم صحة رأي القائلين بأن الثنائي تطور إلى ثلاثي أو رباعي وهذه المسألة هي أن القول بتطور الكلمة من الثنائية إلى الثلاثية لا يعني بالضرورة أن تظل عرضة للتطور إلى الرباعية فالخماسية فالسداسية .. الخ . حقا إن طريقة التوسع والاشتقاق قائمة على الإرتقاء من الأقل والأبسط إلى الأكثر والأكمل ، ولكن هذا الأكثر والأكمل له حد لا تزيد الكلمة عليه بمرور الدهور والأزمان .

خلاصة القول أن الاختزال والنحت إنما يعتريان الكلمات في مراحل نموها المتأخرة أكثر بكثير من مراحل نشوئها الأولى .

الخاتمة :

وبعد ، فقد استبان لنا - في ما تقدم - أن الفكر الدارويني كان مشغلة الحياة الفكرية عامة ، واللغوية خاصة ، في أوروبا طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وأن المثقفين العرب - وجلهم من النصارى - قد شغلوا في بداية اتصالهم بالغرب بنظرية النشوء والإرتقاء التي لم تكن عاصفتها قد هدأت بعد ، وأنهم في مجال اللغة قد تأثروا بها ، بل فتنوا بها ، وقد بدا ذلك واضحاً في مباحثهم ، وكذا في القضايا الكبرى التي انبعثت عنها .

فقد لاحظنا في عرض القضية الأولى كيف تدافعت مباحث المؤلفين في الظهور بين عامي ١٨٨١ - ١٩٨٨ ثم كيف ظفرت المكتبة العربية بعدد من الكتب تناولت نشأت اللغات وتطورها مستعينة - بدرجات متفاوتة - بالفكر الدارويني في هذا المجال .

ولاحظنا في القضية الثانية كيف سرت أقوال الداروينيين في ثنائية الأصول اللغوية في مباحث الدارسين ابتداء من الشدياق فصروف فزيدان فالكرملي حتى بلغت الذروة عند الدومينيكي ، وكيف أحدثت هذه النظرية أثراً طيباً في الدرس اللغوي العربي .

الحواشي

١ - مقدمة أصل الأنواع ص ٨٥ ، والكتاب من تأليف (تشارلز داروين) ترجمة إسماعيل مظهر .

٢ - انظر هذه الأفكار مفصلة في :

أ - المقتطف : الجزء الثاني من السنة السابعة ١٨٩٢م ص ٦٥ ، الجزء الرابع من السنة العشرين ٨٩٦م ص ٢٤٩ .

ب - كتاب (أصل الأنواع) وكذا مقدمة المترجم (إسماعيل مظهر) ص ٣ - ٢٦ .

٣ - لامارك (١٧٤٤ - ١٨٢٩م) .

٤ - انظر آراء (لامارك) مفصلة في تطور الحياة لكاترين جارن ص ١٢ - ١٣ ، أساسيات علم الجيولوجيا لمحمد يوسف وآخرين ص ٢٨ - ٢٩ ، المقتطف : الجزء الثاني من السنة السابعة ١٩٨٢م ص ٧٠ - ٧٢ ، ج ٤ من السنة العشرين ص ٢٤٩ .

٥ - انظر النقد الموجه لآراء (لامارك) في المقتطف : الجزء الثاني من السنة السابعة ١٨٨٢م ص ٧٢ .

٦ - انظر حياة داروين وثقافة ومؤلفاته ومنهجه في :

أ - تطور الحياة لكاترين جارمن ، ص ١٤ - ٣١ .

ب - المقتطف : الجزء الأول من السنة السابعة ١٨٨٢م ص ١ - ٦ .

ت - الهلال : عدد أكتوبر ١٨٩٤م ص ٨١ - ٨٨ .

ث - مقدمة إسماعيل مظهر لكتاب (أصل الأنواع) ص ٢٣ - ٨٤ .

٧ - انظر خلاصة النظرية الداروينية في النشوء والارتقاء في :

أ - تطور الحياة لكاترين جارمن ص ١٩ - ٣١ .

ب - المقتطف : الجزء الأول من السنة السابعة ١٨٨٢م ص ١ - ٦ ، والجزء الثالث من

السنة نفسها ص ١٢٤ - ١٢٧ ، الجزء الرابع من السنة العشرين ١٨٩٦م ص ٢٥٠ - ٢٥٢ .

٨ - نقلنا هذه الأفكار وما قبلها بقليل من التصرف عن مجلة الهلال عدد أكتوبر ١٨٩٤م ص ٨٥ - ٨٨ .

٩ - انظر النقد الموجه للنظرية الداروينية في الأعداد التي ذكرناها سابقاً من المقتطف والهلال ، وانظر كذلك كتاب (الإنسان في القرآن) للأستاذ عباس محمود العقاد ص ٨٨ - ٩٤ .

١٠ - انظر اللغة والتطور - د . عبد الرحمن أيوب ص ٣٦ - ٤٣ .

١١ - ليس من الحكمة الركون إلى النظرية التي ينتصر لها الداروينيون القائلة بأن اللغة مظهر من مظاهر الطبيعة ، فربما كان من الصواب القول إنها كذلك في جانب من جوانب نشأتها . وإنها بنت النظريات المعروفة مجتمعة ، فهي توفيقية ، اصطلاحية ، وتقليد ومحاكاة واستعداد نفسي غريزي وعقلي جماعي . . . الخ وربما كان أقرب إلى الصواب اليوم الأخذ بنظرية (جسبرسن) في نشأة اللغة ، فقد صاغها من مجموع النظريات اللغوية .

١٢ - إن مقالة الداروينيين في هذا الشأن تبدو مقنعة إلى حد كبير ، على الرغم من تحذيرات الباحثين من الاندفاع في هذا الاتجاه ، وعلى الرغم من كثرة ما أحصوه من الفروق الكبيرة بين لغة الإنسان وما يسمى بلغة الحيوان وقولهم : إن اللغة الحقيقية ظاهرة خاصة بالإنسان فليس يطعن في كفاية لغة مملكة النحل المنظمة خلوها من ألفاظ تعبير عن أعماق المحيطات أو أعالي الأبراج وناطحات السحاب ، وذلك لمحدودية عالم النحل ومجاله . وليس يطعن في لغة الحيتان عامة قصورها عن أن تكون لها مقدرة لغة البشر على النطق والابتكار ، وكذا قدرة الإنسان على أن يركب من الأصوات المفردة مئات الألوف من المفردات ، وإن يركب من الجملة النواة عدداً لا يحصى من الجمل التشموسكية ، فال مخلوقات ولغاتها لها حدودها التي تتناسب ووظيفة كل فصيل في هذا الكون .

انظر : أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ، للدكتور نايف خرما ص ١٤١ - ١٥٣ .

١٣ - يرى نايف خرما أن العلماء لم يتوصلوا بعد في ظل نظرية النشوء الارتقاء إلى معرفة أقرب اللغات الحيوانية صلة بلغة البشرية ، فقد اتضح للعلماء أن لغة القروود تختلف اختلافا جذريا عن لغة الإنسان على الرغم من القرابة بينهما من الناحية البيولوجية .
انظر : أضواء عل الدراسات اللغوية المعاصرة ص ١٦٢ .

١٤ - انظر اللغة والتطور ص ٣٧ . وقد بات الكلام على تطور اللغة أمراً مألوفاً على السنة الباحثين العرب ، فتراهم يذهبون إلى أن الجاهلية مثلاً حلقة في سلسلة حلقات طويلة من التطور والتغير ، وذهب رمضان عبد التواب إلى أن التطور الصرفي للمفردات يندر أن يشمل جميع الحالات التي يؤثر فيها ، فهو يدع عدداً من الصيغ القديمة تستمر في الاستعمال إلى جانب الصيغ الجديدة ، وهكذا تترك كل حلقة من حلقات التطور الصرفي بقايا لها ، وهذه البقايا من النظام القديم تبدو في صورة الشواذ في داخل النظام الجديد . وقد اعتبر الشواذ أو البقايا المتخلفة عن التطور ركائماً لغوياً ، ولكنه لم يعدها حلقة وسطى بين لغة الإنسان ولغة الحيوان . انظر لحن العامة والتطور اللغوي ص ٣٧٦ .
وذهب مصطفى جواد ومهدي الخزومي وإبراهيم السامرائي إلى شيء من هذا القبيل باعتبارهم أسماء الأفعال أفعالاً شاذة جمدت عن مسابرة التطور اللغوي ، انظر :

أ - المباحث اللغوية في العراق ، مصطفى جاد ص ٧ .

ب - في النحو العربي نقد وتوجيه مهدي الخزومي ص ٢٠٠ - ٢٠٦ .

ت - الفعل زمانه وأبنيته ، إبراهيم السامرائي ص ١٢٠ - ١٣٢ .

١٥ - انظر في هذا الشأن :

أ - الألسنية (علم اللغة الحديث) المبادئ والأعلام ، د . ميشال زكريا ص ١١٢ - ١١٤ .

ب - علم اللغة العام ، د . عبد الصبور شاهين ، ص ١٦ .

١٦ - اللغة والتطور ، ص ٣٧ - ٣٨ .

١٧ - المرجع نفسه ، ص ٣٨ .

١٨ - المرجع نفسه ، ص ٥٧ .

١٩ - اللغة والتطور ، ص ٣٩ - ٤١ - إن هذا التقسيم المنسجم مع الفكر الدارويني لا يجد سنداً قويا في الدرس اللغوي ، وقد عبر مراد كامل عن ذلك بقوله : (وقد أقام علماء اللغة هذه الأقسام الثلاثة) .

انظر : الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية لجورجي زيدان ص ٢٢ - الحاشية . وقال ماريوباي معقباً على رأي أصحاب هذا الاتجاه في تقسيم اللغات : (وتعارض بعض الأدلة هذه النظرية في تقسيم اللغات ، فقد كانت اللغة الإنجليزية في أول عهدها لغة صرفية ولكنها صارت الآن لغة جامدة : كما يتعارض هذه التقسيم مع الأسس المنقبة ، حيث تجب أن كل لغة من اللغات يمكن أن تندرج تحت أكثر من قسم واحد) ، لغات البشر ص ٦١

وقد اعترض علي عبد الواحد وافي وصبحي الصالح على رأي شليخر في تقسيم اللغات فذهبوا إلى أن مراحل التطور الثلاث موجودة في مختلف الألسنة ، ومن العسير أن تتجرد منها لغة من اللغات . انظر علم اللغة للدكتور علي عبد الواحد وافي ص ١٠٨ ، دراسات في فقه اللغة للدكتور صبحي الصالح ص ٤٦ .

٢٠ - اللغة التطور ، ص ٤١ .

٢١ - لا يبدو أن اختلاف الأصوات في الجماعات الحديثة عنها في الجماعات المتقدمة يعزى لاختلاف تشريحي ، بل يعزى لتفاعلات جملة من العوامل الاجتماعية ، والمدنية والمنهجية ، والسياسية ، فضلاً عن عمل القوانين الصوتية ذاتها .

إننا في العالم العربي لا نملك أن نرد لأسباب تشريحية التغير الذي طرأ على نطق الذال حتى صار زايماً ، والقاف همزة في مصر وبلاد الشام ، علماً بأن هذا التغير قد فشا بصورة واضحة منذ قرن من الزمان ، وإن كان أبو الطيب اللغوي قد ذكر في كتابه الإبدال ٥٦٢/٢ عن بعض العرب قولهم في القفز : الأفز ، وانظر اعتراض د . إبراهيم أنيس على رأي الداروينيين في تفسير التغير الصوتي في كتابه الأصوات اللغوية ص ٢٣١ - ٢٣٤ . وانظر رأي فنديس في أسباب التغير الصوتي في كتابه اللغة ص ٦٢ - ٨٢ .

٢٢ - انظر هذه الآراء في كتاب اللغة والتطور وقد نقلناها بقدر محدود من التصرف .

٢٣ - للوراثة أثرها الضيق في الحالة اللغوية ، وذلك أن الرضيع يرث عن أبويه وأجداده خصائص جسمية ، وربما يرث عيوباً لغوية تتمثل في عدم القدرة على النطق والابداع ، ولكنه يكتسب لغته اكتساباً في مراحل عمره المختلفة ، والدليل على أنه لا يرث اللغة أننا لو نقلناه فور ولادته إلى مجتمع يتكلم لغة غير لغة أبويه ، فإنه حتماً سيكتسب لغة القوم الذين نزل بينهم دوغماً إعاقاً من عامل وراثي أو عرقي ، يقول نايف خرما في هذا الشأن : «إننا لا يمكننا القول أن الطفل يولد مزوداً بلغة معينة حتى ولو كانت تلك اللغة هي لغة آبائه وأجداده ، أو حتى القول بأنه يولد وعنده الاستعداد لتعلم لغة معينة بالذات» أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ص ١٥٤ .

٢٤ - انظر أسانيد (داروين) التي عرضناها في التمهيد .

٢٥ - انظر أسانيد (داروين) التي عرضناها في التمهيد .

٢٦ - يقول مراد كامل معقبا على رأي الداروينيين في هذا الصدد «ومن الخطأ أن نعتبر اللغة كائناً مثالياً ، تتطور مستقلة عن البشر ، ... إن اللغة لا توجد خارج أهلها الذين يفكرون بها ، ويتكلمون بها ... فاللغة ظاهرة اجتماعية تنشأ كما نشأ غيرها من الظواهر الاجتماعية ... وليس تطور اللغة إلا مظهر من مظاهر تطور الجماعة» ، اللغة كائن حي لجورجي زيدان ص ١٢ .

٢٧ - انظر مظاهر هذا التخلف في كتاب : من حاضر اللغة العربية للأستاذ سعيد الأفغاني ص ١٣ - ١٧ ، والفكر العربي في مائة عام ، ص ١ .

٢٨ - كان انتقالهم إلى مصر بسبب الفتنة الطائفية سنة ١٨٦٠م .

٢٩ - انظر كتاب : دور الشاميين المهاجرين إلى مصر في النهضة الأدبية الحديثة للدكتور أحمد طاهر حسنين .

٣٠ - كان جل المستنيرين من النصارى لما ظفروا به من حق التعلم والتعليم باللغة العربية ، ولقربهم من العالم الغربي وثقافته .

٣١ - انظر أثرالداروينية في الشرق العربي في كتاب الإنسان في القرآن الكريم للأستاذ عباس محمود العقاد ، ص ٩٥ - ١١٧ ، وقد كان (شبلي شميل) أقوى أنصارها في العالم العربي .

- ٣٢ - انظر المقالات التي تناولت داروين «المذهب الدارويني» وقد سبق لنا ذكرها .
- ٣٣ - يعقوب صروف (١٨١٢ - ١٩٢٧) انظر الأعلام ٢٠٢/٨ ، معجم المؤلفين ٧ - ٢٥٣ .
- ٣٤ - انظر المقتطف الجزء العاشر من السنة العاشر ١٨٨٦م ص ٣٧٧ - ٨٤ ، ٦٦٧ - ٦٧٠ ، ٧١٠ - ٧١٤ . وانظر الجزء الثالث من السنة الحادية عشرة ١٨٨٦م ص ١٢٧ - ١٤١ .
الجدير بالذكر أن هذه المقالات لم يذكر اسم مؤلفها ، غير أن يعقوب صروف ذكر في تقديمه كتاب (فلسفة اللغة العربية (لجبر ضومط) أنه شرع في نشر هذه المقالات في المقتطف منذ عام ١٨٨٦م مما يؤكد بأنها له انظر مقدمة كتاب فلسفة اللغة العربية ص ٥ .
- ٣٥ - جورجي زيدان (١٨٦١م - ١٩١٤م) انظر معجم المؤلفين ١٢٥/٢ - ١٢٦ .
- ٣٦ - جبر ضومط (١٨٥٩ - ١٩٣٠) انظر الأعلام ١٠٨/٦ ، معجم المؤلفين ١٠٩/٢ .
- ٣٧ - الأب انستاس ماري الكرملي (١٨٨٦ - ١٩٤٧م) - انظر الأعلام ٢٥/٢ ، معجم المؤلفين ١٧/٢ - ١٨ .
- ٣٨ - إسماعيل مظهر (١٨٩١م - ١٩٦٢م) انظر الأعلام ٣٢٧/١ .
- ٣٩ - من أهم مباحثه التي تعيننا : ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء ، تاريخ الفكر العربي في نشوئه وتطوره ، وانظر تقديم إسماعيل مظهر لكتاب : مقدمة لدرس لغة العرب ص : د ، هـ .
- ٤٠ - أحمد رضا العاملي سنة (١٨٧٢م - ١٩٠٣م) ، انظر الأعلام ١٢٥/١ - ١٢٦ وأمين الخلوي ١٨٩٥م - ١٩٦٦م .
- ٤١ - لا يتفق صروف في هذه المسألة وأنصار الداروينية من علماء اللغة .
- ٤٢ - انظر : المقتطف الجزء العاشر من السنة العاشرة سنة ١٨٨٦ - ٥٧٧ . وهو بهذا لا يتفق مع الداروينيين .
- ٤٣ - انظر : المرجع نفسه ، ص ٥٧٨ . وفي هذه المسألة أيضا لا يتفق مع الفكر الدارويني .
- ٤٤ - الصفحة نفسها ، وبوسعك أن تلاحظ النوافل بين صروف والداروينيين من علماء اللغة .

٤٥ - عقد (ماريوباي) مبحثاً بعنوان : أترجع اللغات لأصل واحد أم لأصول متعددة . فذهب إلى أن نشأة اللغة وأصلها ترتبط ارتباطاً تاماً بنشأة الإنسان وأصله ، فإذا كان أصل البشرية واحداً فلغاتها كذلك ، وإن كان أصلها متعدداً فإن كل جماعة فيها ظهرت لغتها على حدة بطريقة مستقلة عن اللغات الأخرى .

وعرض رأي داروين القائل بأن أوجه الشبه في تركيب الجسم بين مختلف الأجناس البشرية يبرر الاعتقاد بأن الجنس البشري كله ينحدر من أصل واحد . ثم عقب على ذلك بقوله : «ولكن الدلائل لا تثبت ذلك بطريقة قاطعة ، فقد أثار بعض علماء الأجناس احتمال نشأة الجنس الأبيض في أنقى صوره على شواطئ بحر البلطيق ، والأصفر عند منحني نهر هوانج هو ، والجنس الأسود حول خليج غينيا ، وأن خصائص الأجناس ومميزاتها تتلاشى كلما ابتعدنا عن مراكز التجمع السابق ذكرها ، ومن الواضح أن هذا الافتراض يدل على ثلاثة أصول للجنس البشري يتبعها ثلاث أسر لغوية مختلفة» لغات البشر ص ٤٧ .

إن هذا الافتراض - لو سلمنا بصحته - ينسف النظرية الداروينية برمتها ، ليس أصل الأنواع من حيوان ونبات فحسب ، بل أصل اللغات كذلك .

٤٦ - انظر المقتطف - الجزء الثالث من السنة الحادية عشرة ٨٦ ص ٧٤ - ٧٧ ، ١٢٧ .

٤٧ - هل تموت اللغة حقاً مثلما يموت الإنسان ، وينفق الحيوان ويهلك الزرع ؟ يقول : رمضان عبد التواب في معرض كلامه على العربية ولهجاتها : «ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى أن كل لغة كانت يوماً ما لهجة من لهجات كثيرة للغة من اللغات ثم حدثت عوامل كثيرة أدت إلى موت اللغة الأم أو اندثارها وانتشار كل بنت من بناتها في بقعة من الأرض مكونة لغة لها خصائصها ومميزاتها» ، فصول في فقه العربية ص ٧٣ .

أما محمود السعران فإن موت لغات وحياة أخرى مسألة نسبية عنده ، فالأمر مرهون باستعمال هذه اللغات أو انقطاع دورانها على الألسن . واللاتينية التي هي أشهر مثال يساق على موت اللغات ، إنها عنده لم تمت حقاً ، بل أصابتها تغيرات عميقة أنتجت أشكالاً لغوية حديثة لها (ومن اللغات التي توقف الناس عن استعمالها الغالية التي حلت اللاتينية محلها . . والقبطية التي حلت محلها لغة الفاتحين العرب . .) اللغة والمجتمع ومنهج ص ١٦٨ - ١٦٩ .

وفي ظني أنه بوسعنا أن نقول ونحن مطمئنون : إن اللغات التي توقف أصحابها عن النطق بها هي في حكم الميتة ، أما إذا قبلنا مقولة أنها لم تمت حقاً وأنها أنجبت أشكالاً حديثة لها ، فإن ذلك ينصرف على الإنسان ، والحيوان ، والنبات ، مع علمنا أن القبور تملأ الرحب ، وأن أديم الأرض من هذه الأجساد ، وقد سبقنا العامة إلى تعميم هذه الفكرة بقولهم : (من خلف ما مات) .

٤٨ - ألح صروف على مسألة التغير في اللغة في مخارج الحروف وفي الألفاظ ، ودلالاتها على معانيها . وألفاظ التغير أو التغيير ، والإبقاء والإهمال وناموس الطبيعة هي ألفاظ راجت في مباحث الداروينيين .

٤٩ - انظر المقتطف : الجزء العاشر من السنة العاشرة سنة ١٨٨٦م ص ٥٦٨٠ ، ٧١٠ ، ٧١٣ .

٥٠ - قد أحرنا الكلام على جورجي زيدان وحقه التقديم ، لأن فكرته في الدرس اللغوي قد اكتملت بصدور (اللغة العربية كائن حي) في مطلع القرن العشرين ، وهذا القول لا يعني أنه من الناحية التاريخية ليس من رواد البحث اللغوي الحديث ، بل الصواب أنه الرائد الأول في هذا المجال وكتابه الفلسفة اللغوية ييشهد له بذلك .

٥١ - نعني كتاب (الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية) الذي نشر سنة ١٨٠ .

٥٢ - انظر : الفلسفة اللغوية ، ص ١٦ .

٥٣ - لاحظ توافق هذا التعريف مع تعريف ابن جني للغة .

٥٤ - انظر : الفلسفة اللغوية ، ص ١٨ - ص ٥٨ .

٥٥ - انظر : الفلسفة اللغوية ص ٥٩ - ص ٦٠ ، وفي وسع القارئ أن يلحظ بوضوح وجود ابن جني متربعا في فناء الأفكار التي عرضناها لجورجي زيدان ، فصاحب الخصائص موجود في تعريف اللغة ونشأتها ، وفي هذه القضية التي نحن بصدد دراستها ، والتي تذكرنا بما سماه ابن جني الاشتقاق الأكبر وتذكرنا بالفصل الذي عقده بعنوان تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني .

وقل ما بدا لك في سبب وجود ابن جني ههنا ، لعله راجع لثقافة زيدان ومطالعته

الواسعة ، أو تأثره بابن جني ، أو نقله عنه ، وأياً ما كان السبب فقد أخذ من ابن جني ما أخذ واحسن توظيفه في عرض أفكاره الداروينية .

٥٦ - المرجع نفسه والصفحة ذاتها .

٥٧ - نفسه ص ٦٧ - ٦٨ .

٥٨ - نفسه ص ٦٩ .

٥٩ - ترى نشأة طبيان أن جورجي زيدان في قوله بالثنائية إنما هو متأثر بما جاء في (سر الليال في القلب والإبدال لأحمد فارس الشدياق) انظر حركة الإحياء اللغوي في بلاد الشام ص ٢٥٠ ، وفي ظني أن تأثر زيدان بالشدياق أمر قائم ، وإن كنا نعتقد أن قول زيدان بالثنائية مرتبط بنظرية النشوء والارتقاء على نحو ما سنوضحه بعد قليل .

٦٠ - انظر الفلسفة اللغوية ص ١١٥ - ١٢٦ . وليس من شك في أن الضمائر وأسماء الإشارة والموصول يجمعها الطابع الإشاري فأما صلة أسماء الإشارة بأسماء الموصول فأمرها لا يخفى في شواهد النحو القرآنية والشعرية . حسبنا أن نذكر على عجل توجيه النحاة لقوله تعالى : (وما تلك بيمينك) ، وقوله : (ها أنتم هؤلاء حاججتم) ، وتوجيههم قول الشاعر :

عدس ما مخلوق عليك إمارة نجوت وهذا تحملين طلق

وقد أنحى مصطفى جواد باللائمة على النحاة لعدم اهتمائهم إلى أن الأسماء الموصولة مأخوذة من أسماء الإشارة انظر : المباحث اللغوية في العراق ص ٨

ولأمر لا يبتعد كثيراً عما نحن بصدده نرى مهدي الخزومي في تقسيمه الكلام العربي يخرج الضمائر وأسماء الإشارة والموصول والشرط والاستفهام من حياض الاسم ليحلها في قسم مستقل هو الكنايات ، انظر : في النحو العربي قواعد وتطبيق ص ٤٦ - ٦٣ .

٦١ - انظر الفلسفة اللغوية ، ص ١٢٧ - ١٢٩ .

٦٢ - المرجع نفسه ، ص ١٣٠ .

٦٣ - انظر مقدمة كتاب (اللغة العربية كائن حي) ، ص ١٩ . وانظر تفصيل الأفكار المذكورة في ثنايا الكتاب .

- ٦٤ - انظر المرجع نفسه ، ص ٢٣ - ١٣٨ .
- ٦٥ - انظر : مقدمة كتاب فلسفة اللغة العربية وتطورها ص : أ - هـ .
- ٦٦ - انظر المرجع نفسه ، ص : ج ، د .
- ٦٧ - نفسه ، ص : ج .
- ٦٨ - في رأبي أن هذا الكلام ربما يفتقر إلى السند العلمي والتاريخي .
- ٦٩ - مقدمة كتاب فلسفة اللغة العربية وتطورها ، ص : ج ، د .
- ٧٠ - انظر كتاب الخواطر العراب في النحو والإعراب - بيروت ١٩٠٩ م .
- ٧١ - المقالات الثلاث هي :
- أ - اللغة العربية ما أخذت وما أعطت ، ص ١١١ - ١٢٥ .
- ب - ارتقاء اللغة العربية ، ص ١٧٣ - ١٩٣ .
- ج - اللغة العربية واللغات الأوروبية ، ص ١٩٤ - ١٩٩ .
- ٧٢ - ههنا مسألتان هامتان :
- الأولى : للاشتقاق أثره الواضح في تنمية اللغة ، غير أن الإسراف في الاشتقاق قد يفضي إلى الترهل اللغوي .
- انظر رأي فندريس في محاسن الاشتقاق وعيوبه ، اللغة ، ص ٢٢٥ - ٢٤٥ .
- الثانية : ليس بالاشتقاق وحده تنمو الفاظ اللغة أية لغة ، هذه اللغات غير الاشتقاقية شاهدة على ما نقول ، والأهم من ذلك أنه على الرغم من أن كبار الكتاب كانوا ينعون على لغاتهم قصورها عن الوفاء بما يحتاجون من ألفاظ فإننا نوافق فندريس وديكارت في ردهما على أولئك الأدباء ، يقول فندريس : «الواقع أننا لا نعلم إطلاقاً لغة قصرت عن إنسان عنده فكرة يريد التعبير عنها فلا تنصت إلى أولئك المؤلفين العاجزين الذين يحملون لغاتهم مسؤولية النقص الذي في مؤلفاتهم لأنهم هم المسؤولون على وجه العموم عن هذا النقص ، يقول ديكارت (أولئك الذين يفكرون خير تفكير وبهضمون أفكارهم خير هضم ليجعلوها واضحة مفهومة ، يستطيعون دائماً أكثر من عداهم أن يفهموا الآخرين آراءهم ولو لم يتكلموا غير اليونانية السفلى» ، اللغة ص ٤٢١ .

- ٧٣ - فلسفة اللغة العربية وتطورها ، ص ١١٨ .
- ٧٤ - انظر هذه الأفكار في كتاب فلسفة اللغة العربية وتطورها ، ص ١٧٣ - ١٩٩ .
- ٧٥ - انظر : نشوء اللغة العربية ونموها واكتهاؤها ص ٢ وهذا أمر عجيب ، لأن ذلك يعني أنه شرع يكتب في نشأة اللغة وهو ابن خمسة عشر ربيعا فهو قد ولد عام ١٨٦٦م .
- ٧٦ - المرجع نفسه ، ص ١٠٧ .
- ٧٧ - نفسه ، ص ١٦ - ٥٠ .
- ٧٨ - نفسه ، ص ١٢٩ ، وانظر تعقيب محمد سالم الجرح على محاولة الكرمللي للتأريخ لتطور العربية - انظر ذلك في الجزء الخامس والثلاثين من مجلة مجمع اللغة العربية ص ٩٧ - ٩٨ .
- ٧٩ - وصف إبراهيم السامرائي هذه الآراء بأنها من الغرائب الغرائب . انظر : الأب أنستاس ماري الكرمللي وأراؤه اللغوية ص ٨٨ .
- ٨٠ - مجلة مجمع اللغة العربية ، الجزء الأول ص ٢٨٠ .
- ٨١ - نشوء اللغة العربية ، ص ٥٠ ، انظر مجلة مجمع اللغة العربية ، الجزء الأول ، ص ٢٨٠ - ٢٨١ .
- ٨٢ - انظر : نشوء اللغة العربية ص ٧٠ - ٧٤ ، وقد ذكر العقاد شيئا قريبا من هذا القبيل كان قد أذاعه الشيخ محمد أحمد مظهر في باكستان ، حيث سرد مئات من الكلمات الأجنبية يحسبها من مشتقات العربية على صورة من الصور اللفظية أو المعنوية .
ومن أمثلة ذلك أن كلمة Bit في الإنجليزية بمعنى قطع وهي من مادة (بت) العربية . . . الخ .
قال (العقاد) معقبا : وقد وفق الشيخ كل التوفيق في بعض هذه الكلمات ، ولكنه أوغل جدا في التخريجات المتتابعة للوصول بالكلمة إلى جذرها العربي فيما يراه) .
- انظر : أشتات مجتمعات في اللغة والأدب (ص ١٥ - ١٦) ، وقد وقع في العالم الغربي شيء من هذا القبيل في القرن السابع عشر حين ذهب بعض الهواة من اللغويين إلى الأدعاء بأن بعض الكلمات اللاتينية واليونانية واللهجات المحلية من أصل عبري ، وحاولوا تأييد وجهة نظرهم عن طريق سرد كلمات عبرية أو كلدانية مقلوبة في

الشكل مع زيادة حروف عليها وإبدال بعض الحروف وعكس وضع بعضها الآخر حتى تطابق الكلمات اليونانية واللاتينية) ، لغات البشر ص ٤٦ .

٨٣ - نشوء اللغة العربية ، ص ٧٠ .

٨٤ - المرجع نفسه ، ص ٦٤ - ٦٥ .

٨٥ - الأب أنستاس ماري الكرملي وأراؤه اللغوية . ص ٩٠ .

٨٦ - الألسنية (علم اللغة الحديث) المبادئ والأعلام ، ص ١١٥ .

٨٧ - انظر : المعجم المساعد - الجزء الثاني - مادة (الأم) ص ٣٧ وهي عندنا مثال للمغلاة في التأويل .

٨٨ - انظر : ثنائية الأصول اللغوية للأستاذ حامد عبد القادر ، مجلة مجمع اللغة العربية ج ١ ص ١١٣ .

٨٩ - انظر تطور البنية في الكلمات العربية للدكتور إبراهيم أنيس - مجلة مجمع اللغة العربية ج ١١ ص ١٦٦ .

٩٠ - في وسع القارئ العربي أن يجد إشارات كافية حول ثنائية أصول بعض الألفاظ العربية في مباحث أعلام البحث اللغوي العربي القدامى أمثال الخليل في معجمه (العين) وابن فارس في مقاييس اللغة . الخ .

٩١ - أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤ - ١٨٨٧) انظر الأعلام : ١/١٩٣ .

٩٢ - انظر تطور البنية في اللغة العربية مجلة مجمع اللغة العربية ج ١١ ص ١٦٦ ، ويرى حلمي خليل أن الشدياق في (سر الليال) قد وقع فريسة النظريات التي كانت تبحث في نشأة اللغة وأصلها ، والتي سيطرت على الفكر اللغوي في القرن التاسع عشر) انظر علم المعاجم عند أحمد فارس الشدياق ص ٣٠ ، في المعجمية العربية ص ١٩٨ .

٩٣ - كان أحمد فارس الشدياق قد تردد بين لندن وباريس حيث النهضة الفكرية ، وكان عارفا بالإنجليزية والفرنسية والإيطالية ، ثم إنه طبع كتابه (سر الليال) في حدود عام ١٨٧٠م أي بعد أكثر من عشرة أعوام على ذبوع النظرية الداروينية وذلك في رأيي وقت يكفي الشدياق ليستفيد باطلاعه الواسع مما أحدثته تلك النظرية في تصنيف كتابه .

٩٤ - سر الليال في القلب والإبدال ، ص ٢٢ .

٩٥ - انظر: في المعجمية العربية المعاصرة ص ٣١ والكلام لرمزي بعلبكي .

٩٦ - الخصائص ، ٤٦/١ (٤٧) .

٩٧ - انظر سر الليال ، ص ٣٦ - ٣٧ .

٩٨ - العين ٣٦/١ وانظر في المعجمية المعاصرة ص ٣٣ - ٣٤ .

٩٩ - انظر سر الليال ، ص ١ ، ص ١١١ .

١٠٠ - انظر الخصائص ١٥٧/٢ - ١٥٨ .

١٠١ - في المعجمية العربية المعاصرة ص ٣٧ .

١٠٢ - يقول محمد علي الزركان معقباً علي منهج الشدياق في تأليف (سر الليال) على

أساس من الثنائية : «إن هذا ليزكرنا بكتب اللغة التي قرأها الشدياق ، وسار على

منهجها في اتخاذ الفعل الثنائي المضاعف أصلاً . ككتاب العين للخليل بن أحمد ،

والجمهرة لابن دريد ، والتهذيب للأزهري ، والمحكم لابن سيده ، والأفعال لابن القرية ،

ومقاييس اللغة والجمل لابن فارس وغيرها . ويبدو لنا أن تلك الكتب هي التي أوحى

إلى الشدياق فكرة إنشاء معجمه (سر الليال في القلب والإبدال) على النحو الذي

ارتضاه من اتخاذ الفعل الثنائي المضاعف أصلاً» ، في المعجمية العربية المعاصرة ص

١٣٤ .

١٠٣ - الفلسفة اللغوية ، ص ٩٨ .

١٠٤ - المرجع نفسه والصفحة ذاتها .

١٠٥ - نفسه ، ص ٩٨ - ٩٩ .

١٠٦ - انظر الفلسفة اللغوية ، ص ٩٩ - ص ١٠٠ ولعل محدودية موضوع الثنائية وقول

جورجي زيدان بدلالة الألفاظ المضاعفة على معنى القطع ، لعل ذلك هو الذي أغرى

نشأة ظبيان بقولها إن جورجي زيدان كان متأثراً في ذلك بأحمد فارس الشدياق . انظر

حركة الإحياء اللغوي في بلاد الشام - د . نشأة ظبيان ص ٢٥ وقد أشرنا إليها قبلاً .

١٠٧ - انظر: الفلسفة اللغوية ، ص ١٠٠ - ص ١٠١ .

١٠٨ - ذاك رأي إبراهيم أنيس وأنا أوافق . انظر مقالة الدكتور إبراهيم أنيس : تطور البنية في

الكلمات العربية . . مجلة مجمع اللغة العربية ، ج ١١ ص ١٦٧ .

- ١٠٩ - الفلسفة اللغوية ص ١١٣ .
- ١١٠ - انظر رأي الأب أنستاس ماري الكرملي في مسألة نشأة اللغات عامة والعربية خاصة الذي عرضناه في هذا البحث .
- ١١١ - انظر :
- أ - المعجمية العربية على ضوء الثنائية والألسنية السامية ، مطبعة الآباء الفرنسيين بالقدس سنة ١٩٣٧ .
- ب - مجمعات عربية سامية ، مطبعة المرسلين اللبنانيين جونية - لبنان من ١٩٥٠ .
- ت - هل العربية منطقية أم أنحات .
- ١١٢ - انظر : مجلة مجمع اللغة العربية ج / ٨ / ١٩٥٩ م ، ص ٣٧٤ - ص ٣٨٣ .
- ١١٣ - انظر أصول اللغة بين الثنائية والثلاثية للدكتور توفيق محمد شاهين ص ٣١ .
- ١١٤ - انظر : المعجمية العربية على ضوء الثنائية والألسنية السامية ٥ - ٧ ، معجمات عربية سامية ص ٥ - ٧ .
- ١١٥ - انظر : المعجمية العربية على ضوء الثنائية والألسنية السامية ص ٦ - ص ٧١ وانظر تطور البنية في الكلمات العربية ، مجلة مجمع اللغة العربية ج ١١ ص ١٦٧ - ١٦٨ .
- ١١٦ - الثنائية والألسنية السامية - مجلة مجمع اللغة العربية ج ٨ ص ٣٨٣ .
- ١١٧ - جمع توفيق محمد شاهين معظم الآراء التي قيلت في الثنائية وذلك في كتابه : أصول اللغة العربية بين الثنائية والثلاثية .
- ١١٨ - انظر : مقدمة لدرس لغة العرب .
- ١١٩ - انظر : مجلة مجمع اللغة العربية ، ج ١١ ، ص ١١٣ - ١٣٣ .
- ١٢٠ - انظر : الثنائية والميزان الصرفي في اللغات العربية في الجزيرة العربية ، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ، المجلد الأول ، تموز ١٩٧٨ م ص ٣٨ - ٧٨ .
- ١٢١ - انظر : أصول اللغة العربية بين الثنائية والثلاثية ، ص ٩٣ .
- ١٢٢ - انظر في هذا الشأن خاتمة أبحاث حامد عبد القادر ، باكرة حلمي ، توفيق شاهين .

- ١٢٣ - تطور البنية في الكلمات العربية ، ص ١٦٨ من الجزء الحادي عشر من مجلة مجمع اللغة العربية ، وانظر : دلالة الألفاظ ، للدكتور إبراهيم أنيس ، ص ٣٢ - ٣٣ .
- ١٢٤ - تطور البنية في الكلمات العربية ، ص ١٧٢ .
- ١٢٥ - انظر : العربية الفصحى نحو بناء لغوي جديد للأب هنري فليش ، ص ٥٣ - ٢٠١ .
- ١٢٦ - انظر : علم اللغة العربية الدكتور محمود فهمي حجازي ، ص ٢٠٥ ، ٢٠٨ .
- ١٢٧ - انظر : فصول في فقه العربية للدكتور رمضان عبد التواب ، ص ٢٩٩ - ٣٠١ .
- ١٢٨ - انظر : العربية الفصحى هنري فليش ص ٥٣ ، وانظر مذكرة رقم ٤ الملحقه بالكتاب ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ .
- ١٢٩ - انظر : المرجع نفسه الصفحات ذاتها .
- ١٣٠ - انظر : علم اللغة العربية ص ٢٠٥ - ٢٠٧ .
- ١٣١ - المرجع نفسه ، ص ٢٠٨ .
- ١٣٢ - فصول في فقه اللغة العربية ، ص ٣٠١ .
- ١٣٣ - المرجع نفسه والصفحة ذاتها .
- ١٣٤ - الاشتقاق للأستاذ عبد الله أمين ، ص ١٥٩ .
- ١٣٥ - يقول صبحي الصالح معقبا على رأي أصحاب الثنائية ورأي القائلين بأن الكلمات بدأت طويلة في أصل بنائها : «نميل إلى الاعتقاد بأن اللغات تتفاوت في أنماط نشأتها وتطورها ، وأن ما يصدق على اللغات الإنسانية المختلفة ربما لا يصدق تماما مع لغتنا : فلا يبعد أن تكون هذه الظاهرة الثنائية أوضح في نشأة لغتنا أو اللغات السامية خاصة منها في نشأة اللغات الإنسانية عامة» : دراسات في فقه اللغة ، ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

المصادر والمراجع

- ١ - الأب أنستاس ماري الكرملي وأراؤه اللغوية - د. إبراهيم السامرائي ، مطبعة دار المعرفة ، القاهرة ، ١٩٦٩ م .
- ٢ - اتجاهات البحث اللغوي الحديث في العالم العربي ، د. رياض قاسم ، مؤسسة توفل بيروت ١٩٨٢ .
- ٣ - أشتات مجتمعات في اللغة والأدب ، عباس محمود العقاد ، دار المعارف بمصر / الطبعة الخامسة .
- ٤ - الاشتقاق ، عبد الله أمين ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٦ .
- ٥ - أساسيات علم الجيولوجيا ، د. محمد يوسف وآخرون . الناشر جون دائل وأولاده نيويورك ١٩٨٣ .
- ٦ - أصل الأنواع ، تشارلز داروين ، ترجمة إسماعيل مظهر ، مكتبة النهضة ، بيروت وبغداد ، دت .
- ٧ - الأصوات اللغوية . د. إبراهيم أنيس ، الطبعة الخامسة ، مكتبة الأنجلو ، ١٩٧٩ م .
- ٨ - أصول اللغة العربية بين الثنائية والثلاثية ، د. توفيق محمد شاهين ، مكتب وهبة ، القاهرة ، ١٩٨٠ م .
- ٩ - أضواء على الدراسات اللغوية الحديثة ، د. ناف خرما ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٧٨ م .
- ١٠ - الأعلام ، خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الخامسة ، ١٩٨٠ م .
- ١١ - الألسنية (علم اللغة الحديث) المبادئ والأعلام ، د. ميشال زكريا ، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٣ م .
- ١٢ - الإنسان في القرآن ، عباس محمود العقاد ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، دت .
- ١٣ - تطور الحياة ، كاترين جارمن ، ترجمة بانة أرناؤوط الشرقاوي ، معهد الإنماء العربي ، بيروت ١٩٨٣ م .

- ١٤ - حركة الإحياء اللغوي في بلاد الشام ، د . نشأة ظبيان ، دمشق ، ١٩٧٦ م .
- ١٥ - الخصائص ، ابن جني ، تحقيق محمد علي النجار ، القاهرة ، ١٩٥٢ ، ١٩٥٦ م .
- ١٦ - الخواطر العراب في النحو والإعراب ، جبر ضومط ، المطبعة الأدبية ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٠٩ م .
- ١٧ - دراسات في فقه اللغة ، د . صبحي الصالح ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ١٠ ، ١٩٨٣ .
- ١٨ - دلالة الألفاظ ، د . إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ٢ ، ١٩٦٣ م .
- ١٩ - سر الليال في القلب والإبدال ، أحمد فارس الشدياق ، الأستانة ، ١٢٨٤ هـ .
- ٢٠ - العربية الفصحى نحو بناء لغوي جديد ، الأب هنري فليش تعريب وتحقيق د . عبد الصبور شاهين ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٦٦ م .
- ٢١ - علم اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ٢ ، ١٩٤٤ .
- ٢٢ - علم المعاجم عند أحمد فارس الشدياق ، د . حلمي خليل ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ١٩٨٧ م .
- ٢٣ - علم اللغة العربية مدخل تاريخي مقارنة في ضوء التراث واللغات السامية ، د . محمود فهمي حجازي ، نشر وكالة المطبوعات ، الكويت ، ١٩٧٣ م .
- ٢٤ - فصول في فقه العربية ، د . رمضان عبد التواب ، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ، الطبعة الثالثة ١٩٨٧ م .
- ٢٥ - فقه اللغة ، د . علي عبد الواحد وافي ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، الطبعة السابعة .
- ٢٦ - فلسفة اللغة العربية وتطورها ، جبر ضومط ، مطبعة المقتطف بمصر ١٩٢٩ م .
- ٢٧ - الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية ، جورجى زيدان ، دار الهلال ١٩٦٩ م .
- ٢٨ - في علم اللغة العام ، د . عبد الصبور شاهين ، مؤسسة ، بيروت ، الطبعة الرابعة ١٩٨٤ م .
- ٢٩ - في المعجمية العربية المعاصرة ، إصدار جمعية الجمعية العربية بتونس ، طبع دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، ١٩٨٧ م .
- ٣٠ - في النحو العربي قواعد وتطبيق ، د . مهدي الخزومي ، القاهرة ، ١٩٦٦ م .

- ٣١ - لغات البشر أصولها وطبيعتها وتطورها ، تأليف : ماربوبي ، ترجمة ، د . صلاح العربي ، القاهرة ، ١٩٧٠ م .
- ٣٢ - اللغة ، ج فندرميس ، تعريب الدواخلي القصاص ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٠ م .
- ٣٣ - اللغة العربية كائن حي ، جورجى زيدان ، دار الهلال ، القاهرة ، دت .
- ٣٤ - اللغة والتطور ، د . عبد الرحمن أيوب ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٩ م .
- ٣٥ - اللغة والمجتمع . د . علي عبد الواحد وافي ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٥١ .
- ٣٦ - اللغة والمجتمع ، د . محمود السمران ، دار المعارف بمصر ، ط ٣ ، ١٩٦٣ م .
- ٣٧ - المباحث اللغوية في العراق ومشكلة العربية العصرية ، د . مصطفى جواد ، مطبعة العاني بغداد ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٥ م .
- ٣٨ - مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ، عمان .
- ٣٩ - مجلة مجمع اللغة العربية ، القاهرة .
- ٤٠ - مجلة المقتطف .
- ٤١ - مجلة اللسان العربي ، الرباط .
- ٤٢ - مجلة الهلال ، القاهرة .
- ٤٣ - معجمات عربية سامية ، الأب أ .س مرمرجي الدومينيكي ، مطبعة المرسلين اللبنانيين ، جونيه ، لبنان ، ١٩٥٠ .
- ٤٤ - المعجمية العربية على ضوء الثنائية والألسنية السامية ، الأب أ .س مرمرجي الدومينيكي ، مطبعة الآباء الفرنسيين ، القدس ١٩٣٧ م .
- ٤٥ - المعجم المساعد ، الأب أنستاس ماري الكرمللي ، دار الحرية بغداد ، ١٩٧٢ م .
- ٤٦ - معجم المؤلفين ، عمر رضا كحالة ، مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٥٧ م .
- ٤٧ - نشوء اللغة العربية ونموها واكتهاؤها ، الأب أنستاس ماري الكرمللي ، المطبعة العصرية ، القاهرة ، ١٩٣٨ م .